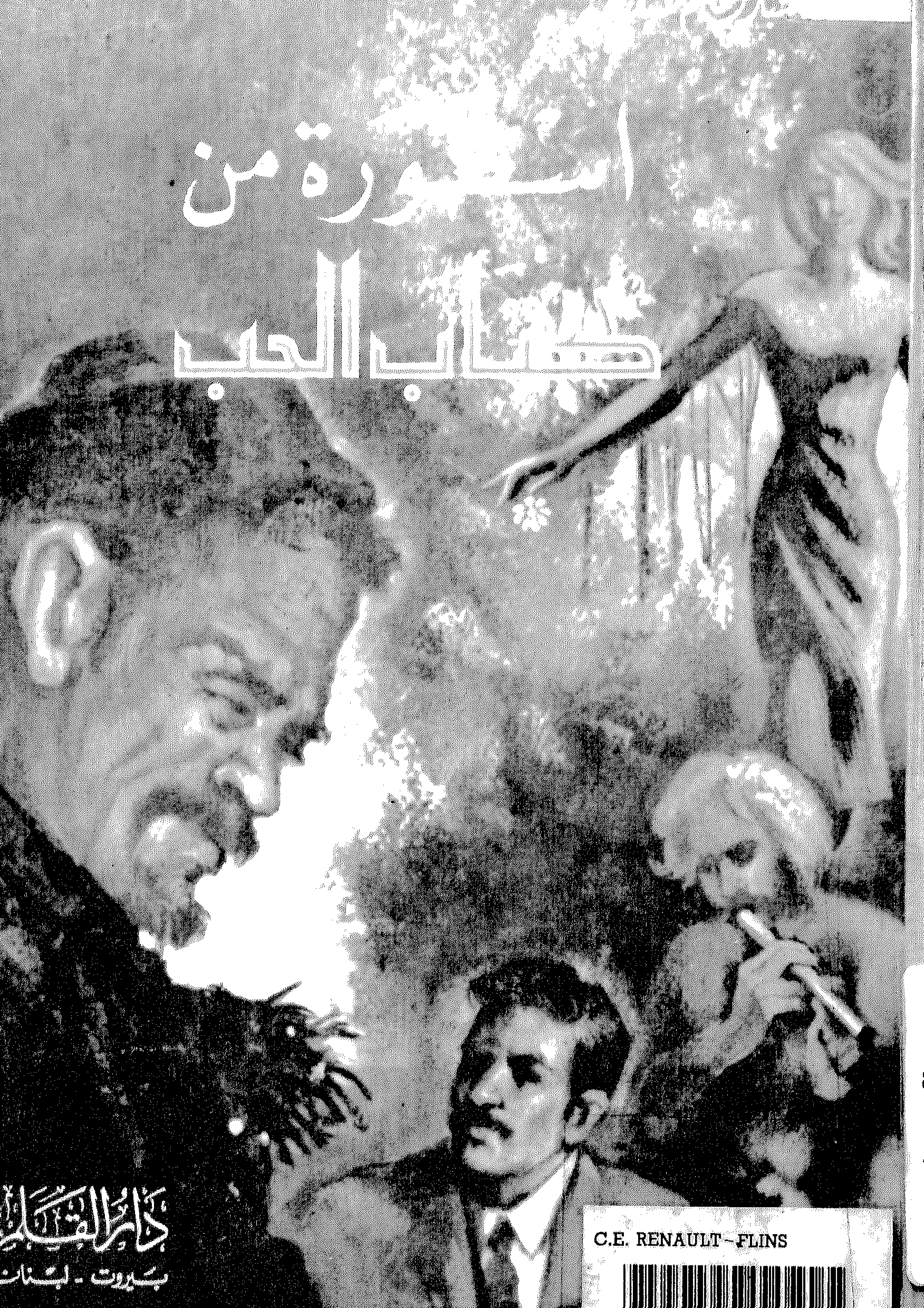

أسطورة من
كتاب الحب
دار القلم
بيروت - لبنان

اسطورة من كتاب الحب

محمد عبد الحليم عبد الله

أسطورة

رواية

من كتاب الحب

دار القلم
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٩٨٠

اسطورة من كتاب الحب

طبيب «المركز الاجتماعي» رجل معروف بحبه للناس • ليس الناس الذين يختلط بهم ، اصدقاءه او اقاربه • بل هم الناس كمجموعة ينظر اليها بشغف وتفحص نظرة الهاوي الى مجموعة من الصور التي خلقتها يد فنان عظيم •

وطبيب المركز ليس وسيما ولا كبير السن ولا معتدا بهندامه ، بل هو شاب متوسط العمر يهمل ياقة القميص وآثار التدخين بادية على أسنانه باستمرار • لكنه يتعهد «روحه» بالتنظيف المستمر • فهو عندما يحس بالقسوة لسبب من الاسباب التي تعبىء النفس الانسانية بما يعيدها الى موقع قريب من الرجل البدائي ذي الاظفار والانياب ــ عندما يحس بذلك يتعهد نفسه وروحه بالعلاج • يبدأ في عمل يشعره بضعف الانسان • كأن ينظر الى صورة بعوضة في كتاب طبي ثم يتذكر معها قصة احد فرسان التتار الذي رووا عنه ان معسكر اعدائه بات خائفا من حد سيفه • ولو

ان هذه البعوضة قبلته قبل تلك الليلة عدة قبلات وسرى رحيقها المسموم في دمه فماذا كان يفعل ؟!•• ويأخذ الطبيب في الموازنة تحت سحابة من دخان اللفائف بين ابرة البعوضة وسيف الفارس وبين تلك الصيحة من حنجرته العاتية وبين أنينها الواني الذي يشبه الاستسلام للالم او اللذة وهي مكبة على دمه ترشف منه •

عندئذ يتذكر ضعف الانسان فلا تلبث روحه التي تداعبها القسوة ان تتطامن ، ويستشعر شيئا من الاسى على الانسان كمجموع • ثم يلجأ الى شيء يقرؤه • من تلك الكتب الاخرى التي أنتجها الوجدان لا العقل ، شعرا او قصة ليرى النفس الانسانية عارية امامه كجسم احد الفلاحين من الذين يستلقون كل يوم بالعشرات على سرير الفحـــص : فلا يلبث ان يستريح ••

لكنه في هذه الليلة سمع نقرا على شباكه : نقرا كاد يعرفه اول الامر • لكنه ما لبث ان استشعر الخوف • وسأل من وراء النافذة :

ـــ من ؟••

جاءته ضحكة منطوية على نفسها • متخاذلة • صاحبها يغالب همه في الظلام • قال صاحبها بعد تنحنح :

ـــ انا •• متى ستعرفني ؟!

فتنهد الطبيب وقام يفتح •• والوقت خريف •• وفي الجو رطوبـــة مستحبة • ورائحة بعض اشجار الموالح من ليمون وبرتقال تمـــلأ نفس الليل ، ومع صرير الباب كانت دقات عصاه التي يتوكأ عليها تعد علـــى بلاط المدخل عدد خطا الوافد :

ـــ اهلا وسهلا يا عم الحاج • هل أحسست بتعب مفاجىء ؟••

ولم يرد عليه الحاج • كان جسمه الثقيل مائلا الى الامام وأردافه بادية الضخامة تحت جلبابه الصوفي الواسع الخفيف وأنفاسه سريعة مع ابتسام

وأنين كأنه يريد ان يؤكد للطبيب انه غير مبال بالآلام .

ثم جلس بعد جهد على كرسي مريح اعتاد دائما ان يجلس عليه . وجلس الطبيب يفحص ملامح الوافد . ويمهله فلا يكلمه حتى يستريح .

كانت يده اليسرى على قلبه وعصاه الغليظة بين فخذيه . ومنديله على جبهته يجفف به عرقا ومن ثنايا المنديل فاحت رائحة لا تنسب الى اصلها بسهولة . وكانت عادة الطبيب مع هذا المريض ان يستمع اليه ، وأن يفحص كل ما يقول متلذذا به كنموذج تطبيقي لنفس غريبة يقع فحصها عنده في المحل الاول .

من عادة هذا المريض الذي جاوز الستين ان يتكلم بلهجة شاكية ثم تئز نبرته قبل ان يسكت كأنه استسلم للالم او اللذة .

وفرك الطبيب كفا بكف ثم سأله بصوت هادىء :

ــ هل انت مأزوم ؟!

فرد بلهجة شاكية :

ــ نعم .. آه .. انني بخير منذ ثلاثة ايام .. نعم .. ينطبق علي المثل القائل : «يا قاعدين يكفيكم شر الداخلين» .. المشاكل من بره . يحملون الي أخبارا تسبب لي ازمات في القلب .. آه ..

ــ خير ...

ــ ليس لي شأن بأحد . دخل عليّ ابني فأخبرني ان قطن عبد الواحد عبده اعطى تسعة قناطير للفدان ..

ــ ثم ...

ــ تسعة قناطير، تصور يا دكتور .. وقطني اربعة للفدان .. تصور، ان كل فدانين وأكثر عندي بفدان واحد عنده ، و... آه .. ثم قامت مشادة بيني وبين ابني . قلت له : اننا لسنا محتاجين لشيء فلا تضايقني بأخبار الناس .. آه .. انت تعلم انه وحيدي .. (وضحك في

عناء) وكنت انا وحيد ابي •• (هاهاهي) •• وليت الحظ يسعده فيصبح هو الاخر والد لولد وحيد •• انه لا يريد ان ينجب •• كل اطفاله يموتون •••

غمغم الطبيب لانه يعرف السبب • دمهم غير نقي كما يقول الريفيون• لكن كثيرا من الناس كما هو معروف يرفضون ان يحملوا ألقاب مرضهم ولو انهم يعانون منه في خلواتهم فوق ما يطيقون • وقطع الطبيبَ عليه حديثه كأنما يمنحه فرصة للراحة :

ــ غدا يشبع اولادا •

فرد الرجل بصوته الشاكي :

ــ لا • ما اظن •• قلت له لا تذكر امامي سيرة الناس • خصوصا عبد الواحد عبده هذا • هذا الذي ولدت بقرته توأما يوم أجهضت زوجة ابني • كل شيء عنده بغير حساب •• دجاجهم يبيض ونساؤهم تلد وأرضهم تعطي أضعاف المعتاد •• وعبد الواحد عبده هذا •• آه •• في السبعين من عمره.يصعد السلم الخشبي مثل عسكري المطافي وأنا •• لا استطيع المشي على الارض •• آه •• قلت لابني لا تذكره امامي •• لكن •••

عندئذ وثبت للطبيب فكرة • أحس ان هذا الرجل يعاني شيئا غريبا • انه كثيرا ما حدثه عن نعم اخرى لناس اخرين بطريقة من يريد ان يقيم من حسده سدا بين الله وعباده • فقال الطبيب فجأة بعد ان نظر في ساعة معصمه :

ــ لو انك حضرت قبل ذلك بساعة واحدة يا حاج ، لرأيت شيئا عجيبا •••

ــ خير ••

ــ كان عندي منذ ساعة المدعو عبد الواحد عبده ••

جاء يعاني ازمة وظهر انه في حاجة الى الراحة ولن يصعد السلم مثل عسكري المطافيء بعد اليوم ••

بدت راحة غريبة على وجه الرجل : اخذت أنفاسه تنتظم نوعـا ما ، وقام الطبيب فجس نبضه فاذا به قريب من العادي • شعر ان هذا الرجل قد ادمن الحقد فهو اذا لم يأخذ منه جرعة بعد جرعة في فترة بعد فترة تسمم دمه مثل مدمن الافيون وان استئصال هذا عمل عقيم ، ثم عاد الطبيب فجلس ووضع ساقا على ساق وأشعل لفافة واستطرد سائلا :

ــ عم الحاج ! ألم يسبق لك ان وقعت في تجربة حب ؟

اتكأ الرجل على عصاه وهو جالس كأنه يريد ان يقفز فخذلته قواه ثم شهق مجيبا :

ــ حب ؟ عيب يا بني ••

ــ لا لا • ليس قصدي عارا • ان قصدي شريــف • فقد يحب الرجل زوجته وقد يحب ابنه • وقد يحب انسانا غير هذين • لكن بشرط ان يشعر انه يستمد الجزء الاكبر من سعادته القلبية عن طريق الانسان الاخر •••

ــ هاهاها (ضحك بقوة) انا احب الذي يعطيني •• وكل النـاس كذلك ••

ــ دعك من الناس • تكلم عن نفسك فأنا شخصيا احب من اعطيه • احب من اسهر في سبيل البحث عن وقايتهم • وأحب اخي الصغير حين يعلن ان بدلته التي اشتريتها له ضاقت عليه ويطالبني ببدلة اخرى • والأسورة الذهبية التي تلمع في معصم أمي والتي ادخرتها من مرتبي•• والوجه المورد بلون الصحة حين يدخل علي وأنا السبب • والقلب •• والقلب يا عم الحاج حين ينتظم عمله بمعونة مني ••

تنهد الرجل وأعرض كأنه لم يفهم قصد الشاب ثم وضع كفه على قلبه

من جديد ، وقال هامسا :

ــ اذن •• ساعدني ••

ــ عبد الواحد عبده لم يمرض ولكنني كنت أداعبك ••

حملق فيه الرجل ولم يرد ثم سأل في احتجاج هادىء :

ــ ولماذا تقول ما قلت ؟

ــ لا شيء •• أحسست فقط ــ كما جربت ــ ان كثيرا من المرضى يؤنسهم في مرضهم ان ينضم اليهم مريض جديد •• كأنهم وهم في الخارج يعانون ما يعانيه السجين الواحد •• في زنزانة • لكن عندما يصبح الواحد اثنين تخف وطأة الالم ولو مؤقتا •• شيوع البلايا يا عمي تخفف من وطأتها •

أطرق الرجل وأسند ذقنه على عصاه وبدا عليه تفكير عميق • وطال الصمت وطال ووصل الى أسماعهم عراك طيور على ذوائب شجرة قريبة• كأنها تتنازع العش او لعل واحدا منها قد سقط على الارض • وأغمض الرجل عينيه وكان كأنما عاد بذهنه الى الماضي• ولأمر ما ــ كالذي يصيب كل نفس ــ شعر بحاجة ماسة الى الاعتراف • ذلك الذي يسيطر على النفوس التي تحمل عقدة الذنب في صمت اكثر مما يسيطر على غيرها• وأحس لو انه باح بشيء مما في صدره لانتظمت دقات قلبه • ذلك المخزن المليء بأشياء معنوية قد تكون في ثقل الرصاص او كثافة الزئبق وهو مع ذلك ينبض في دأب متواصل غير معترف بأحماله • ثم صحا من غفوته ونظر بعينين متعبتين الى الطبيب وقال :

ــ ممكن ان احكي لك شيئا •• انا الان اكثر راحة •• ممكن ان اقول ولا اخاف •• انني لم احب احدا •• كنت اذا نظرت في المرآة وأنا شاب اسأل نفسي حين ارى خيالي : «هل هذا الذي يشبهني تماما يمكن ان احبه لو انه خرج من المرآة بقدرة الله وعاش معي • افكاره

ستكون افكاري وميوله ميولي لكن ربما أختلف معه لانني أختلف مع نفسي كثيرا . ما شعرت مرة يا ولدي ولو لدقيقة واحدة ان انسانا أهم مني . والآباء والامهات يحسون بأهمية حياة اولادهم في ساعات المرض ويدعون الله ان يكونوا هم فداء لهم . وعندما كانت زوجتي تفعل ذلك كنت اخاف عليها مني ان أخنقها رغما عني . وكنا ونحن شبان نحكـي لبعضنا قصصا فحكى لي أندادي عن القلب المشغول لكني لم أجرب هذا ولم اشعر بوجود قلبي ابدا الا اذا خفق من الجري او الخوف .. ثـم شعرت به عندما خفق من المرض .. آه... تعبت» .

كان الطبيب مستغرقا في الاستماع . متأكدا من صحة ما قالـه الرجل . وكان يعلم شيئا اخر هو ان هذا الرجل يعيش في قلق مستمر من ضجره بسعادة الغير . يجلس على قارعة الطريق ليذم الايام التـي كبرت الصغير وأغنت الفقير . كأن كل شيء ضده .. او كأن كل نعمه كانت في الطريق اليه ثم اخطأت فدخلت بابا غير بابه . وعندئـذ قال الشاب :

ــ اسمع يا عم الحاج عندي حكاية طريفة فهل انت على استعـداد لسماعها ؟

ــ بكل امتنان .

ــ حسن . كان لي جدة عظيمة . عظيمة ليس معناها انها كانت اميرة او بنت رجل غني . لكن عظمتها في نظري كانت في قدرتها على امتلاك قلوب كل من حولها . وكنا نتخيل ونحن اطفال ملتفين حولها من بناتها الاربع ان الحلة الصغيرة التي تقدم لنا منها طعامنا يوم نزورها لا يمكن ان تفرغ مما فيها ولو كنا مائة طفل . لماذا ؟! لاننا كنا نأكل من يدها القليل فنشبع ثم تلمسنا بأناملها فلا نلبث ان ننام .

وجدتي هذه حكت لي حكاية لا انساها . وكنت يومئذ في السابعة

من عمري •• عندها •• في ليلة شتوية وأمي في المدينة عند طبيب العيون الذي مكثت عنده شهرا كاملا • قالت لي جدتي : كان في احدى البراري المليئة بالاشجار والثمار والطيور المغردة ، شجرة كبيرة على شاطىء النهر ، وهذه الشجرة كانت اسعد الاشجار حظا في هذه المنطقة كلها • لان عليها عددا لا يحصى من اصناف الطيور المغردة ولانه يجلس تحتها كل يوم شاب وفتاة يحب بعضهما بعضا • وكان الشاب يغني لها وهي ترقص وقد صنعت لها حزاما من الاغصان وعقدا من الازهار وفي كل يد ثمرة ناضجة • وعندما يبدأ هو في الغناء وتبدأ هي في الرقص تأخذ جميع الطيور على الشجرة التي تظلهم ـ تأخذ في الغناء فرحة بالحب • لكن كان بين تلك الطيور طائر مجهول الاسم ينظر الى هذه الدنيا العذبة فوق الشجرة وتحتها بكثير من الحزن وذلك لعجزه الطبيعي عن الغناء • لكن ما لبث هذا الشوق ان دفعه على تقليد الطيور فأخذ يشقشق بطريقة ما• وبمرور الزمن انقطع الحبيبان عن الحضور وكفت الطيور عن الشقشقة وبذلك نسي هذا الطائر المجهول الاسم غناءه مرة اخرى وعاد الى الصمت• ثم مرت الايام واذا بالحبيب يحضر الى الشجرة ويجلس تحتها وحده صامتا يبدو عليه الحزن والمرض ، وتعرف الطيور بغريزتها ان حبيبته قد ماتت لانه جلس يغني بصوت خافت ودموعه تتساقط على الارض • لكن الطائر المجهول الاسم وكان قد فقد وليفته هو الاخر أحس بشوق جديد عندما رأى الحبيب الوحيد شريكه في الاسى • فبدلا من ان يغرد او يشقشق نطق كما ينطق الانسان وشارك هذا الشاب حديثه عن الحب ، يردد كل كلمة يقولها • ولا يزال كذلك حتى اليوم •

ان الببغاء لم يكن ناطقا ولا مغردا ولا مشقشقا ولكنه نطق عندما لمسه الحب •

وسكت الطبيب • وقال الرجل : يا لها من حكاية طريفة لكن كيف تذكرها حتى الان وقد مضى عليها ثلاثون عاما ؟

فقال الطبيب :

ـ ذلك لان قلبي حفظها كما يحفظ كيف يخفق • وأنا يا عمي العزيز أهديها الى قلبك فان حفظها كما حفظها قلبي اصبحت سليما معافى • فأنت لست مريضا بالقلب ولكنك يا سيدي محتاج الى الحب •

وفي الخارج ـ عندئذ ـ غرد بلبل في السماء الندية كأنه يؤكد للساهرين ـ للطبيب والمريض ـ ان أسطورة الببغاء صحيحة •

غناء عند الأقدام

منذ ثلاثة أعوام وهو جالس امام هذا الكرسي •• ولسبب اصبح واضحا في ذهنه أطلق عليه اسم «الحصان» • وهناك في أعماق نفسه علاقة تشبه المودة التي تولد بمرور الزمن بين الحصان والسائس • فهو ينظر الى هذا الكرسي ذي المحور الدوار والمستوي على منصة من الخشب يلمع عليها مشمع ألوانه زاهية ـ ينظر الى هذا الكرسي نظرة مودة تشوبها الالفة التي تفرض نفسها علينا فرضا •

فهو منذ اشتغل في صالون مسح الاحذية هذا وهو يحس انه (يعيش بالمقلوب) • المرايا الكبيرة تقع خلفه • وطالما حملق هو في وجوه الناظرين فيها • وبين وهلة ووهلة وهو منكب على عمله في تلميع جلد الحذاء يفطن الى احدهم وهو يسوي شاربه او يعدل قميصه او يعيد احدى خصلات شعره الى مكانها اذا كان شابا في مقتبل العمر • وقد يبتسم الشاب لنفسه دون ان يلحظ ان ذلك القابع هناك على الارض

يلاحظ ابتسامة الاعجاب في غبطة محزونة •
وأحس انه (يعيش بالمقلوب) ايضا لانه امام هذا الكرسي لا فوق هذا الكرسي ، ولانه يرى الأقدام لا الوجوه • وكثيرا ما تمنى لو ان الظروف قد اتاحت له ان يحترف حرفة اخرى • وقال في نفسه يومئذ وهو مكب على حذاء يبلغ طوله قدما انجليزيا •• طول المسطرة •• كان موحلا وكان ينقيه من بلاياه • والشاب صاحب الحذاء تبدو عليه البدانة والميـــل للمغامرة • ومن فوق الكرسي كان يحملق في المرآة امامه والشاب الذي تحت الكرسي يحملق في الحذاء وظهره للمرآة ويفكر : «لو ان الظروف اعطته مهنة اخرى •• حلاق مثلا» • انه على الاقل يكون في حال سعيد فالمرآة امامه ويقضي عمله وهو واقف منتصب الطول • ووجوه الناس في متناول نظره حتى ولو كان خلفهم وهو يعمل لانه سيرى وجوههم فـــي المرآة مع وجهه هو وسيتولى تنظيف اعظم ما في الانسان •• الرأس •• وقد يتابع في صمت وهو يستمع الى ضربات المقص حركة الافكار فـــي ذلك الانسان الصامت حين تسرقها المرآة من ملامح الوجه ويراها هـــو دون ان يفطن صاحبها • اما في هذا الوضع •• تحت الكرسي •• وهو ينظف ادنى الاشياء فانه لا يستطيع ان يرى ما هو جميل •• مثلا الملامح والافكار ولون الشعر والبشرة •
وسأل نفسه : لماذا احترف هذه الحرفة ؟ وسرعان ما جاء الجواب من ماضيه • انه كان يكره كل ما هو صعب • كان يريد ان يتعلم صنعـــة سهلة وعندئذ قال له ابوه : وهل هناك صنعة سهلة يا بني • ان السهل لا يمكن ان يكون صنعة • فالصنعة معناها تعب والتعب معناه عرق •
لكنه لم يستجب للنصائح • لم تعجبه ميكانيكا السيارات فهرب•• عز عليه ان يلبس ملابس ملوثة وينام على ظهره تحت هياكل العربـــات ويخرج بخدود عليها بقع سوداء •

وأخيرا أوصله المطاف الى هنا ، حيث المرايا خلفه والوجوه اعلاه . وها هي ذي يداه قد امتلأت بقعا من كل لون . وجلبابه الذي يرتديه لا فرق بينه وبين خرقة التنظيف التي يمسكها بيده .

وتنهد . ونظر الى الكرسي الخالي نظرة السايس الى الحصان : لقد لمع خشبه اليوم بأمر صاحب الصالون منذ الصباح الباكر وغير بياضة الشلتة المدورة فوق الكرسي . كساها بياضة جديدة في اول الاسبوع. وأدار الكرسي الخالي امامه عدة مرات على محوره وتركه مستقرا ذراعاه مفتوحتان نحو الباب كأنما ليستقبل الزبائن : وبدورة واحدة يفعلها الزبون بجسمه يصبح في وضع مواجه للمرآة وقدماه على قدمي الحديد المثبتين امام الشاب .. ليمسح .. وشعر الشاب بشيء غريب ، ان علاقة مثل علاقة «الأسرى» تربطه بهذا الكرسي . ولذ له تأمل الناس وهم يستمدون شيئا يشبه الخيلاء من جلسته هو وفكر : هل يشعر الجالس على كرسي الحلاق بمثل هذه الخيلاء ؟!

وأجاب نفسه بالنفي .. «لا» ..

اذن لم هذا ؟! هل الزهو والخيلاء يولد من المتضادات .

ولعله فهم هذا . ففجأة تذكر نفسه وهو غلام .. واقف بكل ما فيه من فكاهة وعدم مبالاة ينظر الى طيور «ابو قردان» العارية السيقان المقوسة الظهر والكتف .. ينظر اليها ويضحك كأنه لم يرها طول عمره. وعندئذ سأله ابوه : «ماذا اصابك يا ولد .. انها مخلوقات الله !!» .

فرد قائلا : «تصورت يا ابي ان الطاووس وأبو قردان حبسا في قفص واحد» .

وترك والده يرسم بقية الصورة بخيال رجل كما يرسمها هو الان . فأحس ان الخيلاء احيانا تأتي بسبب «كرسي» او بسبب رؤية من هو أقل ذكاء او مهارة او جمالا او حتى .. «مهنة» .

وعض شفته •• «لو لم اهرب من الصعب لكانت حياتي اليوم سهلة» •

★★★

في احد شوارع القاهرة الان بحي السيدة زينب شاب يلبس معطفا جديدا •• قديما ، فوق جلباب جديد جديد • وفي قدميه حذاء جديد قديم وجورب جديد جديد ••

يشعر بخيلاء طارئة • كم وقف امام واجهات صالونات الحلاقة ومرايا الفاترينات ليتأمل وجهه المرتاح وشعره المرجل الملمع بالبريانتين •

وجلس على احد المقاهي وصفق فاذا برجل يسارع ملبيا تصفيقته وما لبث ان قدم اليه فنجالا من «السحلب» ••

نكهة «القرفة» على سطح الشراب تداعب احـــــلام هذا الشاب ، وامتزجت هذه بروائح الليمون والبخور مع روائح «الزلابيا» التي تقلى في دكان مواجه فمنحت الشاب خيالا مجنحا حمله الى قمة مئذنة السيدة زينب التي يراها عبر الميدان.• وتأوه في تلذذ وفرك يديه •• ونظر فيهما كأنه يقرأ في خطوطهما همس المستقبل •

كان يتأمل الدنيا بعين مرتاحة •• ورأى ملامحها بعين الفنان الذي يرى في الخرائب شيئا تعبر عنه «الريشة» وفجأة قام ليعبر الشارع متجها الى حيث لا يدري ••

ان وجه القاهرة اليوم في نظره ذو ملامح أخاذة •• كم تمنى لـــو استطاع ان يضمها بين حضنيه ••

وسمع صوتا يلعنه وهو يعبر الشارع • وكان ضجرا نافد الصبر ، يتهمه بالعمى • وحين نظر الى مصدره وجده رجلا يسوق سيارته وقد

وقف بها فجأة قبل ان يدهمه • لان ذلك الشاب ذا المعطف الجديد القديم والجلباب الجديد الجديد ، تحرك فجأة الى العبور وهو واقف على احدى جزر الشارع فلم يعط فرصة لسائق السيارة ان يعرف نيته عن الحركة •

غير ان الشاب لم يأبه بهذا • سار صامتا وكأن الكلام لم يوجه اليه • بل •• عجب حين تمنى بعد ان وصل الى الرصيف ان لو كان دهمه فمات • انه لا يريد ان يفارق هذه الحالة من الرضا والطمأنينة والسعادة بشيء غير محدود يراه في كل شيء ويشمه في كل رائحة • وبما ان هذه الحالة غير ممكن ما ان تبقى هكذا فما اروع ان يفارق الانسان فيها الحياة ••

وها هو ذا ينظر الى حذائه فيراه قد اتسخ • كان في ميدان السيدة خندق طويل وطين وتراب لانهم يصلحون انابيب المياه • وقد تلوث حذاؤه وهو يعبر الميدان لكنه لم يشعر به الا في هذه اللحظة • ولعل السبب المباشر لهذا الاحساس انه رأى لافتة كبيرة كتب عليها (صالون مسح الاحذية) ورأى عند مدخل الصالون مباشرة كرسيا ذراعاه مفتوحان نحو الشارع مستويا على المنصة وكأنه حصان ملأه الزهو •

وعرج ودخل ••

جلس والمرآة امامه وقدماه على قدمي الحديد وشاب في مثل سنه كأنه مولود معه في يوم واحد قابع عند الأقدام •

نظر اليه الشاب ذو الحذاء الجديد القديم بكثير من الرثاء ، وهو في اوائل العمل ثم ما لبث ان سأله :

ـ من متى تشتغل في ••

رفع الشاب اليه رأسه وسأله :

ـ في •• ما قصدك ؟!•• الدكان او الصنعة ؟!

ـــ قصدي الصنعة !!

فتنهد الشاب وسكت ٠ وأخذ يلمع الحذاء بحركة سريعة وكل شيء فيه يهتز ٠ شعره ٠ كتفاه ٠ ركبتاه : كأنه يزيل أوحال الدنيا عن هذا الحذاء ولم يرد عليه ٠٠

ومرت لحظات كأنها دهر ٠ كان الشاب الجالس على الكرسي فيها مشغولا بمطالعة صفحة وجه نفسه في المرآة امامه ويذكر بحواشي شعوره ان شخصا اخر يعطي ظهره للمرآة وان قدمه داخل الحذاء تشعر بلذة يد تلمسها من فوق الجلد الذي يدهن ويلمع ٠

ولم يفق الجالس على الكرسي الا على صوت الشاب الجالس على الارض وهو يقول لصبي صغير بلهجة عصبية :

ـــ افتح لنا الراديو ٠٠ يا بني !!

وفعل الصبي ٠ وأخذ الراديو يغني ٠ والشاب الجالس امام الأقدام يتابع الاغنية بصوت منخفض حزين ٠

نظر اليه الجالس على الكرسي وشعر باحساس متفوق ٠ احساس من يريد ان يربت على شعره ذي اللونين المتداخلين في اصفر كالح وأسود غير داكن ٠ واحساس من يريد ان يعطيه كل ما في جيبه من قروش لانه لم يكن موسر الحال ٠

ونظر الى يديه الملوثتين بأنواع من البقع وجلبابه الذي يشبه الخرقة التي يعمل بها ـــ في اللحظة التي كان هو فيها قد انتهى من فردة حذاء واستعد للعمل في الثانية ٠ وفي وهلة ذات عمق يشبه الدهر ، أحس الجالس على الكرسي ان الشلتة تحته لينة جدا وانه لا يريد ان يفارق هذه الجلسة ٠ وكأنه نسي ذلك الانسان الذي شعر نحوه بالرثاء اول ما رآه وتابع دندنته بقلبه وهو يغني عند قدميه ٠٠

وعندئذ ٠٠ نظر الجالس على الكرسي الى يديه هو ٠ وكانت كفاه مخبئتين في جيبي معطفه ٠٠ نظر ٠٠ فرأى بقعا ٠٠ سوداء وحمراء ٠٠



كان يلوم نفسه . . . تلك التى نسيت ماضيها!

لم يستطع الغسل القوي ان يزيلها ••

وعندئذ نزل من على الكرسي معتذرا بأنه داخ •• وجلس على كرسي عادي •• وقدم الفردة الاخرى للشاب بعد ان خلعها لكي ينظفها وهي غير ملبوسة •

كان قد داخ فعلا •• لأن زهوا وخيلاء أنسته انه هو •• هو ذلك الذي يحترف نفس الحرفة والذي بحث وهو صغير عن عمل سهل وهرب من ميكانيكا السيارات لكنه كان في اجازة •• ولذ له ان يذوق تجربة الجلوس فوق هذا النوع من الكراسي التي قضى عمرا وهو جالس تحت أقدامها •• فداخ •

منح الشاب منحة عجب لها لانها فوق قدرة من هو في مثل مظهره، وسار في الطريق ينظر الى حذائه اللامع ويخيل اليه انه قد حمل أوحال الدنيا • لانه كان مهموما • كان يلوم نفسه • تلك التي نسيت ماضيها؟!•• بل حاضرها فأحس بزهو على رفيقه في المهنة التي يكرهانها معا •

لكنه كان يقول في نفسه : «هناك اشياء يجب ان يعملها الناس لنفسهم بنفسهم •• حبا في الناس» •

العازف

ماذا يساوي هذا «العود» الذي يحتضنه وماذا تساوي الانغام اذا ما وازن الناس بين هذا وبين ما قد سمعوه في الداخل منذ خمس دقائق على الاكثر ؟!

بعض الناس اعتبروه «بقعة» يجب ان تزال من هذا المكان • وبعض الذين يكثرون التردد على هذا الملهى الليلي ، اعتبروه (علامة) او احد ملامح المكان من الخارج • فهذا الرجل مثل الشامة على الوجه الحسن • والشامة وحدها لا تزيد على ان تكون نقطة سوداء لكنها مع الخد تكون منظرا لا تشبع العين منه •

وهذا الرجل المسن الذي يجلس على كرسي من الخيزران اختصرت أرجله الاربع الى نصف طولها بمنشار ـ تحتضن عـــوده ويلبس سترة سوداء ورأسه بلا طربوش وعلى عينيه نظارة في لون السترة • ومـع هذا الرجل آخران في منتصف العمر يكملان المنظر خارج الملهى كاحدى

اللافتات الثلاث مثل راية ملونة ان فقدت احد الوانها فقدت جنسيتها تماما • احد الرجلين يسند الى الحائط صندوقا يبيع فيه السجاير والاخر يضع صندوقا زجاجيا مليئا بالسوداني المقشور وفي الشتاء يشوي الى جانبه حبات «ابو فروة» •

وترتفع في هذه المنطقة رائحة الاكل والتبغ والالحان عندما يتقدم المساء ويبدأ رواد الملهى في التوافد اليه •

كان اكثرهم دخلا بائع السجاير ويليه في الدخل بائع السوداني • اما العازف فكان أقلهم دخلا لكنه كان في حقيقة الامر اكثرهم حظا باهتمام الناس • كل العيون تراه وان كان لا يرى احدا ولا قلب الا ويخفق له حتى ولو لم يكن هناك (تعامل) •

وكيف يحدث التعامل ؟ سلعته •• أعني نغماته تملأ الهواء حول جدران الملهى • نعم • وقد يأخذها الناس بآذانهم — بل يأخذونها حتما — ثم يمضون دون ان يدفعوا الثمن • وهو لا يرى اعجابهم او حتى رثاءهم لانه مكفوف • وربما سمعوه وهم بعيدون عنه •• وسلعته لا يمكن استردادها اذا لم يدفع ثمنها فهي تنتشر كالهواء دون ارادته •

اما السجاير وأبو فروة فهما سلعتان يتحكم فيهما صاحبهما بكل قـواه ••.

لذلك فقد كان رواد الملهى يرون الانكسار على وجه العازف • وكثيرا ما ربطوا بينه وبين بعض العازفين الذين سمعوهم في داخل الملهى هؤلاء اللابسون ملابس السهرة • بياض قمصانهم في نصاعة لا توصف كأنه مصدر البياض في كل شيء ابيض • وسواد ستراتهم وأحذيتهم لا يوصف كأنه ايضا مصدر السواد لكل شيء اسود • رءوسهم مرفوعة الى فوق وهم يعزفون وشعورهم مدهونة وعيونهم تحملق في شيء واضح •• مكتوب •• «نوتة» • اما هذا الرجل المكفوف فيعزف وهو



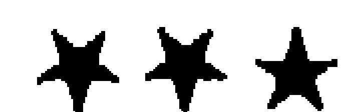
الثلاثة مثل راية ملونة . إن فقدت أحد ألوانها فقدت جنسيتها!

منحن وشعره أشعث لا يلمع . وذقنه غير محلوق. .. والاهم .. انه لا ينظر في شيء لا مكتوب ولا مشطوب . انه ينظر في فراغ مظلم متماوج. ربما رأى فيه بأذنه كلمة رسمت صورة .. لشخص يسخر او يرثي او ضحكة مغمغمة تلفها شهقة من امرأة خرجت من الملهى وهي تحلم بالحب غير ملقية بالا الا لدفء «ابو فروة» في احدى ليالي الشتاء الدامع .

غير انه قد كان في قلب هذا العازف شيء يعتز به . كان يفاخر به ابدا زميليه العزيزين . زميليه اللذين لم يفترق منهما ولم يفترقا منه منذ اكثر من عشر سنوات . كان يقول لهما وهو يبتسم :

ــ الفرق بيني وبينكما انني اعطي اكثر مما آخذ . فليس كل الذين يسمعون عزفي وغنائي يدفعون لي . اما انتم فانكم تأخذون اكثر مما تعطون . فأحدكم يبيع الدخان بأغلى من سعره والاخر يبيع السوداني بثمن الفستق او (ابو فروة) وكأنه يبيع الدفء لقلوب الناس .

ويضحك الزميلان من غروره في الوقت الذي يكون فيه هو غارقا في تأملات .. يرى في الرقعة السوداء التي لا نهاية لها صورة ايديهم الممتدة . اما هو فلا يمد يدا لاحد . انه فقط يسمع حواشي لحنه وغنائه ــ بين فترة وفترة قد تطول وقد تقصر ــ يسمع رنة معدنية مبهمة، سريعة كنحية من مجهول .. وعندئذ يعرف العازف ان يدا طيبة قد اعطته بعض الاجر . نصف قرش او قرش بأكمله اضيف الى النقود في الطبق الموضوع امامه على الارض .



وقف امامه الليلة شاب وفتاة . شم من رائحتهما خمرا .. كانا

خارجين من الملهى • من فمهما تفوح رائحة خمر حقيقية ومن اعطافهما خمر الشباب • كانا ثملين لدرجة معقولة ولكن جو نهاية الليل والبرودة الندية والعطش الذي يحرق بعض اصحاب هذه السن ـ جعل الشـاب يرى في العازف شيئا جذابا ••

اشتريا سجاير ثم اصطحبا معهما بعضا من (ابو فروة) وأخيرا انتبها الى العازف ••

كان يدندن •• لم يكن صوته عاليا في العادة • كأنـــه يخشى ان يخدش احساس احد • يخافت بالصوت واللحن ليعطي فرصة الاختيار للمتطلع او الفضولي او المخلص في الاستماع •• وكان يقول شيئا عن الشباب ، وشيئا اخر عن فوات الفرصة كان معنى ما يقول :

«عد يا شبابي ••»

«لأمنح غفلتك الحكمة التي اعرفها الان ••»

«تعال ••»

«لتجعل عودي ينطق بفصاحة ••»

«وليصبح حلوا ••»

«كل ما يقوله الليلة وهو يتلعثم ••»

«تعال ••»

قال له الشاب ضاحكا مخمورا :

ـ أوو •• ه !! وكنت قد علمت سيد درويش ومن جاءوا من بعده فنا عظيما •• (وضحكت الفتاة نصف ضحكة ذيلتها بشهقة طويلة) • واستطرد الشاب ليدخل مزيدا من المسرة الى قلبها :

ـ لو ضاع منك هذا العود •• لـ ••

سكت العازف • وانبرى للشاب فجأة بائع السجاير كأنه خرج من

قمقم •• طويلا بادي الطول • جلبابه مفتوح الصدر بصرف النظر عن حالة الجو • وأمسك كتف الشاب وقال له بلهجة حاسمة :

ـ هل طلب هذا الرجل منك شيئا ؟!

رأى الشاب والفتاة بوادر الشر في عين المتكلم • فهز هو رأسه نفيا وفتحت صديقته عينيها • فاستطرد الشاب بصوته الحاسم المرتفع :

ـ وهل اعطيته انت شيئا ؟؟

فهز رأسه نفيا ولم يرد • وبقيت الفتاة على حالها من التوجس والانتظار والخوف • فاستطرد الشاب من جديد بصوته الحاسم المرتفع ايضا :

ـ وهل تظن انه يبيت جائعا اذا لم تكن انت على قيد الحياة ؟!

فهتف الشاب مؤكدا بيقين من يعود الى الايمان ان كان في خطر :

ـ لا والله العظيم !!

فعاد الشاب الاخر يهز كتفه ويقول :

ـ كان على باب جامع الشيخ رفعت رجل اخر كفيف يقرأ القرآن•• وكان المصلون يستمعون اليه على باب الجامع ويعطونه •• هل تفهم ؟!

تهيج المخمور وأخذ يموء كالهر :

ـ فهمت •• ف •• هيمت •• آه •• •

فتركه الشاب ليمضي الى شأنه •• وفي غمار هذه الحوادث الصغيرة سمع العازف المكفوف صوتا ليس له رنين في خفة جناح فراشة • فاحت منه رائحة عطر في انفه وأذنه • وفي العالم اللجي الاسود الواقع امام عينيه رأى ما يشبه الشياطين وعند ذلك نادى بائع السجاير وكان الشاب والفتاة قد بدآ في التحرك منذ وهلة صغيرة وقال العازف :

ـ حسين •• انظر بسرعة ماذا زاد في الطبق امامي •

ـ ورقة بعشرة قروش ••

ـ الحقهما بها • فيها رائحة عطر المرأة التي معه • لن ألمسها •• وفيها رائحة اخرى •• اجر بسرعة يا حسين فاني اسمع صوته وهـــو يطلب (تاكسي) •• من اجل كرامتنا نحن الثلاثة ••

وفعل الشاب ما أمره به الرجل ••

***

ليس حتما ان يكون ما قد وقع في الليلة السابقة من حوادث صغيرة للعازف وصاحبيه سببا فيما وقع في الليلة التالية ••

ففي هذه الليلة الباردة نقص الثلاثة واحدا • غاب العازف عـــن المكان •• لا تفوح الا رائحة السجاير المحترقة و(ابو فروة) المشوي • ومكان العازف خال تحت اللافتة الكبيرة التي تحمل صورة عارية لبرامج الليلة • وعين صاحبة الصورة تحملق الى المكان الخالي بنظرة مخمورة كأنها تسترد وعيها • والرجلان الاخران يشعران بنقص محسوس • ليس في الروح وحدها • بل احساس من يلبس ثوبا مفردا على جسمه ويمشي به للمرة الاولى •• شبه عري •• ايضا •• وبرودة تكاد تكون داخلية اكثر مما يحدث من طفح الريح •

وأخذا يرقبان عيون رواد الملهى• كل من يشتري السجايـــر او السوداني او (ابو فروة) يسأل • قال شاب رزين :

ـ الله !!•• اين صاحبكما ؟؟ نقص المكان شيئا مهما •

ونظر صاحباه في صمت •

وقالت امرأة لعوب :

ـ ياه !!•• اين هو ؟!•• هل دخل هنا ؟! (وأشارت الى الصورة في

اللوحة الاعلانية) ، ونظر صاحباه في صمت •

لكن رجلا ثالثا ضعيف البصر اخذ يحملق في المكان الخالي وهـو مطأطيء رأسه كأنه يبحث عن قطعة نقود سقطت منه ونظر لصاحبي العازف ولم يسأل •

***

ولم يمض وقت طويل ، اسبوع واحد • ثم رأى رواد الملهى منظرا فريدا • منظرا كان هو العازف نفسه غير انه ذو تأثير مضاعف •••

كرسيه الذي اختصرت أرجله الاربع الى النصف بمنشار موضوع في مكانه المألوف تحت لوحة الاعلانات • وعلى ظهـــر الكرسي سترة العازف السوداء• وعلى الكرسي نفسه حيث كان يجلس (عوده) المعروف: العتيق الكابي اللون • وفوق العود صورة للعازف استندت الى ظهــر الكرسي وأمام الكرسي (الطبق) •.وامرأة مسنة متشحة بالسواد تجلس على بعد ، يفصل بينها وبين (تركة) زوجها صندوق السجاير وصندوق السوداني للصديقين •

كل رواد الملهى عرفوا إلقصة ومدوا أيديهم الى الطبق • لكن هذا الوضع لم يطل اكثر من بضع ليال ••

اختفت سترة العازف وصورته من فوق الكرسي القصير • ولم يلبث رواد إلملهى ان رأوا مكان الصورة والسترة امرأة الرجل • وارثة التركة•• غير انها كانت تعزف في صمت • وبلا غناء • مطرقة دائما • لا ترفـــع عينها نحو احد • ولا تمد يدها • وكان عزفها أمهر بكثير من عـــزف زوجها •• وتساءل الناس :

ـــ هل كان الرجل قد علمها العزف قبل ان يموت ؟!

وقليل منهم كان يعرف الجواب الواضح . فقد علمها استاذ كبير ، مشهور جدا ويعرفه كل الناس .. اسمه الالم .

الامبراطور المخلوع

ـ «من يصدق انني كنت أسكن هذا القلب ؟!» .

وكان هذا القلب موضوعا امامها على منضدة بجانب السرير .. بغير خفقات .. مغمورا في سائل طبي يحفظه من التلف . بعد ان كان هـــو صاحب السلطان المطلق على جسم هذا الرجل الذي احبته والذي تراه الان ممددا في فراشه مغمض العينين وتسمع أنفاسه وترى تورد خديه . ولا بد انه الان يحلم بشيء ما . ترى بماذا يحلم بعد ان اصبح في صدره قلب فتاة ؟!

وتبسمت له . ونسيت نظراتها الهائمة حوله . انه لم يكلمها حتى الان لانها لم تستطع ان تأتي اليه الا اليوم .. قطعت في القطار اليـــه مسافة لا تقل عن ثلاثمائة من الكيلومترات . في نفس القطار الـــذي تعارفا في احدى مقاصيره . ومنذ ذلك اليوم خفق قلبه هذا الذي تراه خفق بحبها عنيفا . سمعت خفقه بأذنها وقال لها يومئذ : «هل تسمعين..

نعم تسمعين .. انت قانون الحركة فيه . ويوم تتخلين عنه فانه سيصبح مواتا » .

وها هو ذا امامها مثل امبراطور مخلوع . كان يأمر فصمت .. وكم قال لها صاحبه : «ان قلبه هذا شديد التنبؤ بالغيب . فهو مثلا يحس انها ستخلف ميعاده وأنها ستتزوج رجلا غيره وأنه سيعيش بعدها في تعاسة» . وقال لها :

«ان قلبه كان يأمره بأن يخرج في الظلام لكي يقف على مقربة من بابها حيث يكون الليل أشد حلوكة تحت احدى العرائش المزروعة هناك والتي تعشش فيها طيور تزقزق في صمت» .

ونظرت الى أنفاسه المنتظمة وتساءلت عن احلامه . ثم نظرت الى قلبه المغموس في السائل وفتشت عن موضع الاحلام فيه . ولم تدر لماذا وقعت عينها على مرآة معلقة في الحوض في الحجرة . لم تكن المرآة كبيرة لكنها عكست من خلال النافذة امامها ـ جزءا كبيرا من حديقة المستشفى وبرجا عاليا لاحدى الكنائس . وكل شيء امامها في المرآة يكاد يلمس والاغصان تتحرك اذا لمسها الهواء . وتصورت ان المرآة قد كسرت ثم سألت نفسها : هل تبقى الصورة ؟! وعندئذ وقع نظرها على القلب .. ذلك الامبراطور المخلوع الذي كف عن تسيير عالمه والسيطرة عليه . عالمه الممدد الان في السرير تحت حكم قلب اخر ... ذلك الامبراطور حين خلعه الاطباء لم يتيحوا له ان يهرب بشيء خارج الحدود . بدليل ان عالمه هذا .. ذلك الجسم لم يمت .. لانه .. اما أن يأخذ كل شيء واما ان يترك كل شيء ..

لقد ترك ذكرياته في جميع الخلايا ومضى . فحبيبها الممدد الان في الفراش مزرعة عجيبة . لم يعد هو هو انسانا عاديا .. بل اصبح صدره مثل أصيص نقلت اليه شجيرة جذورها بعد ان خلعت منه شجيرة . لعله

الان يحس بأن شيئا غريبا يجثم على صدره •• كابوس ينبض • ومع كل نبضة تتساءل مناطق الحس في جسمه عن الخبر • وشيئا فشيئا يتـــم التفاهم وتندمج الشجيرة في ارض الأصيص الجديدة • يندمج القلب في الصدر ، وتستجيب مراكز الجسم كله لاوامر الامبراطور الشاب •

وتبسمت الفتاة •• ونظرت الى الامبراطور القديم الهرم المغموس في السائل الطبي • لقد لعبت به كثيرا • جعلته يخفق في الدقيقة الواحدة ضعف خفقاته العادية • كانت نظرتها تجعله يجفل مثل طائر مذعور وأحيانا يستنيم لها في هدوء كفرخ طير فرشت له امه الزغب • وحتى وهو في اشد ساعات مرضه ما كان يعجز عن التعبير • لانها ساكنة فيه •

وها هي ذي الان تنظر اليه •• ولا شيء يحدث •

وكانت ايضا ترى نفسها في حدقتي عينيه • هاتان اللتان أسبــــل عليهما أجفانه الان راقدا وهو منهمك • يتنفس بقلب اخر • وكان يقول لها عندما يراها تحدق في عينيه : «ماذا ترين فيهما ؟» فتقول : «انني ارى نفسي •• صورتي في كل عين •• وأرى قلبك •• قلبك فـــــي عينيك •• لا •• بل قلوبنا في عيوننا •• ولو لم تكن قلوبنا في عيوننا لضل الناس بعضهم عن بعض • فعيوننا هي النوافذ التي نرى منها ما في الصدور بدليل اننا نطرق او نغمض اذا اردنا ان نخبىء ما فـــــي صدورنا •• » •

ونظرت اليه تحت ملاءة بيضاء في لون السوسن • كان جبينه مقطبا نوعا ما واحدى كفيه مقفلة على هيئة قبضة • منظر يدل على الاصرار حتى خيل اليها انه على وشك ان ينهض من فراشه ليجري ثم يصعـــد سلما لعمارة ارتفاعها عشرة طوابق • وبعد ذلك بدقيقتين خيل اليها ان كل شيء فيه قد تراخى في همود من يريد ان ينام نوما أبديا • ولم يلبث ان عادت اليه حالة التعادل وبدا منظره منظر رجل نائم • •• ولا شيء

اكثر من ذلك .

ثم قالت في نفسها : في اللحظة التي سيفتح فيها عينيه سأعرف كل شيء .. ومن خلال عينيه الزرقاوين سأرى ما بداخل صدره كما كنت أفعل من قبل . فليس هذا القلب المغموس في السائل اكثر من مـــرآة كسرت واذا وضعت مكانها مرآة عاد المنظر كما كان طبيعيا حيا .

***

وانفتحت عيناه لاول مرة مثل نافذتين تطلان على القلب الجديد . وسجلت مشاعر الرجل ــ لاول مرة في وضعه الطارىء ــ احدى لمسات الحب . وكما تضيء السماء بنور القمر اضاء وجهه في الفراش . وبحركة آلية صرفة لمس ذقنه المحلوق وهو يبتسم . ثم همس باسمها .. وأغمض عينيه لينام مرة اخرى والابتسامة على شفتيه تتلاشى شيئا فشيئا . وكانت تحمل من المودة كل ما حملته الابتسامات القديمة ولولا منغصات من ألم جسماني يعانيه حتى الان لكانت اكثر اشراقا . ثم رأت مخايل حلم سعيد حول أهدابه المسبلة بعد ان نطق باسمها وأغمض عينيه . وعندئذ لاحت منها التفاتة الى قلبه القديم المنقوع في السائل الطبي : وتغيرت نظرتهـــا اليه .. رأت الحب معنى أدق وأشمل . ليس القلب (كعضو) وحـــده مسكنا له ولكن الانسان كله كبنيان . والطبيعة ايضا مضافة اليه ... بدليل ان المعدة تمرض بسبب الحب فتطرد الطعام . والجسم كلـــه يمرض . والطبيعة ايضا .. يفقد الشجر خضرته والبحر رونقه والمـــاس بريقه ..

وعندئذ نهضت لتقف امام المرآة لتسوي شعرهـــا . وفجأة رأت محاسنها كما تراها امرأة غريبة منفصلة عنها . وفي المرآة اغصان الشجر

تتلاعب وبرج الكنيسة ينطح السماء • وبدا لها منظرها اجمل مما رأت قبلا •• عندما رأت الانسان في اطار الطبيعة وهنا ادركت ان كل شيء في اجسامنا ان هو الا قطعة من هذه الطبيعة • فنحن من الارض والى الارض • حتى حبات عيوننا اصلها من طين •• وما الطين الا الارض وما الارض الا مجموعة العناصر التي تتكون منها اجسامنا •

★★★

وعاد الرجل ففتح عينيه مرة اخرى وقال في هذه المرة كلمتين :

«سوزان !!•• انت هنا ؟!» •

ووضع يده على صدره وأغمض عينيه • كأنه يشير الى قلبه •

كان صوته منخفضا جدا • غليظا جدا • كشيء مشروخ • ولم تدر لماذا أحست فيه نبض رجولة • وتذكرت فجأة ان في صـــدره قلب فتاة • وعندئذ تبسمت • وذهبت الى النافذة حيث أطلت على الحديقة ، وهي تتصفح جرائد اليوم التي لم يكن لها من حديث الا هذا الحديث ••• اعتبار جسم الانسان بقدرة العلم مجموعة من اجزاء • مثل السيـــارة والطيارة • ولا تعتبر حياتها منتهية اذا فسدت منها قطعة •• حتى ولو كانت المحرك •• ولو كانت القلب !

ورأت في الحديقة امامها امرأة يتبعها كلب •• ثم عربة محملة بلحم الخنازير • ثم تمثالا لاحد نوابغ الطب في عصر مضى • كل هذا في اطار واحد تحت عينيها الحائرتين وأمام عقلها المليء بالتساؤلات •

وعندئذ تذكرت ما قاله الاطباء : من ان أنسب القلوب عملا فـــي صدر الانسان اذا ما غير قلبه •• هو قلب الخنزير •

وجمح خيالها فتصورت رجلا وضعوا له قلب خنزير ومخ عبقـــري

كذلك النابغة الماثل في الحديقة تمثاله . فكيف يتعاونان معا ؟!

ثم تصورت امرأة وضعوا لها قلب قردة وعيون غزال فماذا تصنع؟..
انها ستقطع الطريق على المارة بنظراتها ومحاكاتها .

ثم تصورت قلوب القديسين حين تنقل الى صدور الطغاة في التاريخ وقلوب الشجعان حين تنقل الى صدور الاذكياء الجبناء . وقلوب مشاهير المحبين في العالم حين تنقل الى صدور مجرمي الحروب .

***

وعندئذ دخل احد الاطباء وحياها .

ـ مرحبا سوزان .. لقد كان يسأل عنك .

ـ قبل العملية ؟

ـ نعم ...

ـ المهم ما بعدها يا دكتور ؟!..

ونظرت اليه ففهم ما تعني .. فتبسم وقال :

ـ هل تعرفين القيثارة يا سيدتي ؟

ـ نعم .. وأعزف عليها . وطالما عزفت عليها له في ليالي القمر ...

فزادت ابتسامته حتى تحولت ضحكة :

ـ المهم ان تعرفي ان الانسان مثل القيثارة . فاذا كان حيا كان قيثارة وأنغاما . وان كان ميتا كان قيثارة بلا انغام . وربما بلا اوتار فذلك لا يهم اذ انه لا قيمة لوتر لا يعزف .

.. الانغام يا سيدتي تأتي بفعل فاعل .. شيء من الخارج لكنه مكمل للانسان ، والانسان ــ حتى وهو نائم ــ قيثارة تعزف لانه يعمل عملا ما ويفكر فكرا ما في احلامه . بل انه يتكلم وهو تحت تأثير



ونظرت إليه تحت ملاءة بيضاء فى لون السوسن

البنج . لذلك فأنا أعتقد ان الطبيعة التي حولنا ان هي الا امتــــداد الانسان . وأنا اقصد بالطبيعة المجتمع والارض والسماء وما يراه الانسان وما لا يراه . كل هذا امتداد له . ولذلك يجب ان تعلمي ان لكل انسان قلبين : قلب بمعنى عضو وقلب بمعنى اوسع من ذلك ..

تصوري دائما القيثارة بأنغامها . فهذا هو الانسان . فلا يهم اذن ان وضعنا في صدره قلب امرأة او قلب رجل او قلب خنزير . لاننا لــو ركبنا له عيني حصان لرأى الدنيا من جديد بكل امتداداته .. فهو ليس داخل اجهزته المعروفة طبيا . الانسان كائن اكثر امتدادا من الجهـــاز الهضمي والتنفسي والعصبي وغيرها .. اذن .. فاطمئني .

قالت سوزان في ابتسامة مشرقة بالامل :

ـ اذن فأنا ساكنة القلب الجديد ؟!

فرد مداعبا :

ـ نعم .. وقد تأكدنا من ذلك عند عملية النقل فقد شممنا العطر الذي يفوح منك وكأنه يفوح من دمه .

الأعواد الخضراء

يد ابي توقظني من النوم في ليلة خريف باردة • رأيت كل شيء من حولي وأنا افرك عيني بيدي يدل على انه قد سحب قهرا من الهجوع ، حتى مصباح الجاز الذي اعادت امي اشعاله • وكان ابي يرتدي ملابس الحقل في عجلة ملهوفة ويسأل وهو يلبس عن بندقيته التي يصطحبها عادة اذا خرج اثناء الليل ••

كان المنظر بالنسبة الي لا يزال حلما •• لماذا أوقظ في هذه الساعة؟! ولماذا يبدو الاهتمام على ابي وأمي هكذا ؟! ثم هو يطلب بندقيته وقلما كنت اراه يحملها • فسألت نفسي : «هل ابي خائف ؟!» وكان الجواب : «نعم» لان كل شيء فيه يدل على الخوف • وعند ذلك وبطريقة تلقائية أحسست ان الخوف يملأ كياني لا لشيء الا لاني رأيت ابي خائفا •

ولفت امي على رأسي «كوفية» من القطن لتؤمنني برد الليل وفعل ابي كذلك • ثم امسكني في يده •• كفي في كفه • وأحسست بضغط

كفه على كفي بعنف وكأنما كان ذلك ايذانا بالسير الى الحقل • فسألت ابي بصوت ملهوف :

ــ الى اين ••

فضغط على يدي كأن فيها فمي • وهمس :

ــ هس •••

وقابلنا الليل عند مدخل الحارة • ليل نوفمبر في الريف • بعباءته السوداء الندية • وهمسه في اوراق الشجر وحقول الذرة • والمياه فيه تعكس السماء في قدرة تجعل الضفادع والنجـــوم جنبا الى جنب • وحوحت ••

فسأل ابي في همس :

ــ انت بردان ؟!

قلت :

ــ نعم ••

وكنت في الحقيقة أوحوح من الخوف •

ولم يستأنف ابي الحديث معي •• تركني نهبا لوساوس لا تحصى وأنا الصبي الذي لم يتجاوز السادسة عشرة من العمر •

كان سلاحه تحت ابطه وخطاه سريعة واسعة • احسست انه يريد ان يطوي الطريق والزمن • وخطاي القصيرة لا تستطيع ان تدرك خطاه• لذلك وجدتني مضطرا الى ان أهرول لكي اسير معه جنبا لجنب •

والطريق الذي نمشي عليه ضيق مفروش بالنجيل • لم تستطـــع المواشي السائبة ان تعريه من ثوبه الكثيف الاخضر • وهو لذلك يكتم وقع الأقدام •• أعرفه في النهار • بين حقلين مزروعين بالذرة وعلـــى جانبيه أعواد ناضجة والمياه في قناتين ضيقتين على حافتيه • والشمس حين تبعث اشعتها عليه متخللة السحاب الابيض تبدو مثل طفل سماوي

يلهو على الارض ثم ينسحب •

لكن ماله بالليل هكذا ؟!•• انه غير الذي اعرفه بالنهار • انه مثل ابي •• ليس هو الرجل الذي اراه في الحقل تحت الشمس • يسيل العرق على صدره ويبرق على زنديه ووجهه •• انه رجل اخر •• غريب••

***

وفجأة وقف ابي ••

خرخشت اوراق الذرة من امامنا •• ورأينا شبحا يعبر من الشمال الى الجنوب • عبر الطريق الضيق والقنوات ••

وتأهب ابي •• ولذت به •• فدفعني عنه • لكن كل شيء عاد الى ما كان عليه بسرعة كأن الليل قد نطق بكلمة واحدة وسكت عائدا الى الصمت فلم يكن ذلك الشبح الذي عبر سوى احد الثعالب ••

وقال ابي يهمس ليطمئنني : ثعلب •• لا خوف منه •• عليه لعنة الله•

وكنت اعرف ان الثعلب لا يفترس الرجال بل يخافهم ويلجأ الى الحيلة لكننا كنا في حالة ترقب فلم تكن الحركات في وزنها الطبيعي •

***

وفجأة رأيت ابي يلطمني على وجهي وهو يقول لي :

ـ هل جننت ؟!

وفكرت في سؤاله فعلا وكدت اقول : نعم انني جننت • فما الذي

حدث ؟! سمعت صوتا يرتفع فجأة وهو يغني : «يا ليل يا ليل» •

ولم تكتب لانغامه ان تتم • لان هذا الصوت كان صادرا مني ولان ابي ادركني فأسكتني بأن لطمني •

وعجبت لماذا أغني •• وما لبثت ان وجدت الجواب • فقد غنيت حقا لليل غناء الوثنيين الذين يرقصون للاخطار : ففي اللحظة التي نطقت فيها بلا وعي بغنائي كان الليل قد بسط علي سلطانه بكل ما فيه من صمم وبكم وفعلت ظلمته في نفسي ما يفعله القمر في مياه البحر •

على ان مخاوفي قد قلت • وشيئا فشيئا أحسست ان الخطر شيء يمكن ملاقاته ما دامت النفس قد وطنت على ذلك • بدليل ان وطأة البرد قد خف ملمسها على جسمي بعد ان غادرت الدفء بربع ساعة • وكان ابي «يزمجر» • كنت اسمع صوته الحبيس في صدره ولست ادري لماذا• خيل الي ان ابي يكتم نداء او تهليلاً • وكان عوده القصير وهو يمشي في الظلام الى جانبي أشبه بالقدر المتسلل • وأخيرا ضجرت فعدت اسأله في صبر نافد :

ـ الى اين يا ابي ؟

فأجاب وهو في حالة مثل حالتي :

ـ الى حقلنا الجنوبي •• الى أي مكان تظن اننا ذاهبون الان يا غبي ؟!••

وابتلعت ريقي • وتلاشت اخر عباراته في ضوضاء الحقول والهواء• وعاد السكون حتى كدت اسمع طنينه في أذني تحت الكوفية •

وكنا ساعتئذ قد وصلنا الى طريق فرعي اخر • كعادة اهل الريف تجنبا للاخطار فهم يتحرون ان يصلوا الى غايتهم في الليل من الطرق الجانبية او من غير طرق • يمشون في الحقول التي ربما كانت مظلمة بالزرع وهم يعرفون طريقهم كالملاحين في البحر • بين عيني كل منهم

(بوصلة) وفي قلب كل منهم حذر .
وكان ابي جديرا بهذا الموقف في هذه الليلة . فقد كان خائفا من ان يكون قد استدرج لكمين ، لذلك لطمنيء عندما غنيت .

***

ورأينا السماء مرة اخرى بعدما قطعنا طريقنا هذا . حملقت في النجوم بطريقة الظمآن ينظر الى الماء فقد كنت مشتاقا الى الجو المكشوف .،
ورأيت ابي أقل طمأنينة فقد كان يكثر من التلفت ويسرع في خطاه. وبعد ذلك دلفنا الى حقل عرفت على الرغم من الظلام انه حقلنا وكنـــا نمشي فيه من ناحية ليس عليها ترعة متجهين الى الناحية الاخرى حيث تقع الترعة التي تسقي ذلك الحقل .
وبعد ان قطعنا عدة أمتار داخل ارضنا قال لي ابي وصوته يحمل مزيجا عجيبا من النبرات . فيها الحماسة والاندفاع والتوتر والرضا بما سيقع مقدما . قال ابي :
اسمع .. قد يحدث ان نجد ناسا عند رأس حقلنا هناك عند الترعة او على مقربة منها . قد تحدث اشياء لا تخطر على بالك . وكل ما يهم عمله هو انه اذا حدث ما لم يخطر على بالك ان تسد فتحة الماء ان كانت مفتوحة حتى لا تغرق الارض .
وتنهد ابي .. وأمرني ان اجلس القرفصاء وفعل مثلي ثم بدأنا نقطع الطريق الى نهاية الحقل بهذه الطريقة . ففهمت ان ابي لا يريد ان يكون هدفا ولا ان تراه عين .
وهمس لي : ان رأينا ماء يلمع على ارض الحقل فمعنى ذلك انهم

اطلقوا الماء ليتلفوا الزرع النابت وأخرج انا اليهم • اذن فلتحجز انت الماء عن الارض واتركني انا أتصرف اذا حدث شيء اخر • واذا لم نر ماء يلمع على ارض الحقل كان هناك خطر واحد هو خطر خروجي اليهم في مثل هذه الساعة وهذا أقل ضرراء

فقلت وأنا أزحف على ارض حقلي : ابي يرى كل شيء حوله اعظم قيمة منه شخصيا والا ما خرج من دفء الحجرة مخاطرا هكذا • ثـم سألت نفسي : لماذا لم يستعن بأحد اخوته قبل ان يخرج •• هل يراني أهلا لتحمل المسئولية ••

★★★

همس ابي بفرحة شديدة : ولد •• ولد •• ليس هنا ماء يلمع • انها خدعة •• فتحة الماء مقفلة والزرع سليم •• الارض سوداء في لون ارض الجيران • وسكت كعادة اهل الريف وتلفت • ونظر الى السماء وشرع بندقيته وأطلق في الليل طلقة مزقت سكونه • كأن ابي يريد ان يقول : «نحن هنا ••» •

واتنظرنا • كانت آذاننا شديدة التوقع لان تسمع طلقة اخرى من مكان ما ردا على طلقة ابي • وكانت الثواني تمر في ثقل لا يوصف كأن لها اجنحة وطنينا ووزنا مثل وزن الجبال • وجلس ابي بعد ذلك تماما على الارض ورأيته يداعب بيده المضطربة بعض أعواد الزرع النامية كأنـه يتحسس اطفالا نجوا من الغرق وبدت على وجوههم فرحة النجاة مع بقية من دموع الخوف •

ولست أدري لماذا أحسست ان ابي قريب الى قلبي جدا في هــذه

الساعة . شعرت كأنه اتنصر على كل شيء حتى على ظلام الليل وأخذت شيئا فشيئا اشعر بشعور جديد .. شعور غير الخائـــف او احساس القادرين على عمل شيء يطلب منهم . وان هذه العصا القصيرة التـــي احملها ليست أقل قوة من رصاص البندقية .

لقد بعث ابي الى قلبي شيئا فشيئا احساسا بالرجولة والقدرة على حمل ما هو اقوى من قواي .

***

ولم نلبث ان اخذنا طريقنا عائدين الى الدار ولكن ليس من نفس الطريق الذي سلكناه من قبل . وبدا الليل اقصر ضراوة والطريق اقصر مما كان قبلا .

وعند باب الدار سمعت امي وقع خطواتنا ففتحت في صمت ذلــك الباب الذي كانت واقفة وراءه منذ خروجنا . وكان قلبها يخفق . بدا ذلك من لهجة كلامها المتعثرة . لانها حين سمعت طلقة البندقية لم تدر من اي يد أطلقت . ولكن سيادة الصمت بعد الطلقة الوحيدة جعلتها ترجح انها من يد ابي خصوصا لانها كانت عالية .. اي ان هدفها كان اعـــلان الحراسة .

ودخلنا كلنا . وجلس ابي يسب ويشتم ذلك الذي اخرجه في مثل هذه الساعة . كانت نظرته للامر سليمة . فقد وقع بينه منذ يوم واحد شجار مع احد الجيران في الحقل وفي هذه الليلة ارسل من دق على باب دارنا دقات مستعجلة فنهض ابي وأمي في عجلة وذعر فلما سألوا عـن الطارق قال بصوت غير واضح : انا محمد .. حقلكم الجنوبي أطلـق

عليه الماء ليغرق ..

ولما فتح الباب لم يجدوا احدا الا الظلام والسكون . ولم يعرفوا شخصية المنادي ثم ما اكثر اسم محمد في القرية ..

وكان العمل يبدو وكأنه استدراج لكنه ايضا كان امتحانا لرجولة ابي . فقد كان موقنا ان الذي نادى عليهم في مثل هذه الساعة يكمن الان في مكان ما ليرى ما سيحدث .

وجعل ابي وأمي يفكران : «اذا كان ما قيل صحيحا فان الحقل سيغرق واذا كان ما قيل غير صحيح فان الكرامة ستغرق» .

وعند ذلك أيقظاني وخرجت انا وأبي في الرحلة التي مرت بنا . لكننا عندما عدنا كنا أثقل وزنا وأعظم قيمة . ولم يلبث ابي ان اخرج من جيبه عودا أخضر قدمه لأمي في نور المصباح المتعب قائلا لها : «انظري.. لقد اصبحت البطاطس في هذا الطول .. كنت خائفا عليها ان تغرق».. وضحك في سعادة قبطان نجا كل ركابه من عاصفة .

***

عند شروق الشمس تماما كنت واقفا على رأس ذلك الحقل . كانت خيوطها الذهبية تنساب بين الخطوط وفوق الخضرة كذهب قد صهر حديثا . والترعة من ورائي مليئة بالماء وفتحة الري محكمة تماما . وكنت أتخيل حوادث البارحة . وهمساتنا وطلقات الرصاص والاشباح التي هرولت في كل فج .. كنت أتخيل كل ذلك وأحاول ان ارى له اثرا . لكن نفسي لم تجد شيئا من ذلك . كأن النهار قد مسح بيده البيضاء على

تلك الحوادث ففركت عيني بكفي وأنا في تمام اليقظة وأنا اقول «لعلي في حلم» • وفجأة وجدتني أغني في النهار تلك الاغنية التي قطعها علي ابي البارحة ونحن في الطريق الضيق وجدتني اقـــول والشمس طالعة :
(يا ليل •• يا ليل ••) !!



ورأينا النجوم مرة أخرى ...

الغد الباسم

كان يحدثني كثيرا عن شيء لا اعرف اسمه وكنت أحاول ان أشاركه الحديث فيه بطريقة غلام يعتمد على خياله وحده لانه ليس هنالك ظل من الحقيقة يربطني بما يصفه لي ٠

وفي الفترة التي استبد به هذا الخاطر الخبيث كنت خائفا من لقائه. فعندما دق جرس الحصة الاخير تلكأت في الفصل قليلا حتى خرج هو منه ثم لذت بنهاية حديقة المدرسة حيث تنتشر اشجار الرمان ذات الفروع اللينة والاوراق الغزيرة وحيث يمكنني ان أتوارى فيها ٠

ولم يكن معي حقيبة للكتب كالتي يملكها هو ، ذات الجلد الانيق والاقفال المعدنية التي تشبه الفضة ٠ بل كنت اضع كتبي التي أحاول دائما المحافظة على نظافتها في كيس من (المشمع) احمله في حـــذر وخجل ٠٠ وأنا الان مختبيء تحت شجرة الرمان حاملا اياه تحت ابطي مشغولا بالنظر الى تلك الازهار النارية الحمراء ٠ ورائحة الارض المروية

والخضرة عموما ، ونكهة الجرجير الذي تغمر به حديقة المدرسة ـ تملأ الجو من حولي .

ولم أدر كم من الزمن وقفت لكنني انتبهت فجأة على صوت ابواب تغلق فأدركت لفوري ان العمال في المدرسة على وشك ان ينتهوا من اعمالهم فهممت ان أتحرك للخروج ولكنني فوجئت بيد تشدني من ساقي وبضحكة منتصرة يريد صاحبها ان يقول :هأنذا قد عثرت عليك.

وحاولت ان اضحك حتى لا أكشف امر نفسي . ورأيته هو .. هو نفسه التلميذ الذي حاولت الاختباء منه (حمودة) جالسا على حقيبته الجلدية النفيسة ذات الاقفال الفضية غير مراع رطوبة الارض من تحتها ولا الاضرار التي تنتج لها من ذلك .

وعندما انتهى ضحكنا سمعنا احد العمال يستحثنا على الخروج . وسرنا .. كيس المشمع بكتبي تحت ابطي وحقيبته الجميلة تتمرجح في يده .

وكانت دورنا بعيدة عن المدرسة اذ كنا من قرية صغيرة تعداد اهلها لا يسمح لها ان يكون بها مدرسة ولذلك كنا نذهب الى هذه المدرسة في القرية الاخرى .

وكان علينا لاجل ان نصل الى قريتنا ان نسير في طرقات ضيقة بين المزارع . في طريقنا حدائق وحظائر ومخازن زراعية مما يتيح لنا في بعض الاحيان ان نلعب في الطريق شيئا ما .

وكنت أتمنى على الله ان يتحدث (حمودة) عن شيء او ان يلعب اي لعبة اثناء سيرنا . ولكن .. كنت ادعو الله في سري ألا يعود للحديث عن الاشياء التي يفاخر بها وعن المكان الذي يحتفظون بها فيه وعن انواعها وألوانها لانني في الحقيقة كنت قد استنفدت كل مدخراتي من الخيال ولم يبق بعد ذلك الا ان أنكشف .

ورأيت ونحن في الطريق ــ ما دمت انني لم استطع الفرار منه ــ ان خير وسيلة للدفاع عن نفسي في هذا اليوم هو الهجوم عليه •• علــى (حمودة) وكان معنى هجومي عليه هو ان أثير همومه ومخاوفه مــــن اشياء أعرفها • وعندئذ •• فانه سينشغل بهمومه هو عن اثارة همومي ••
فقلت له فجأة ونحن في الطريق :

ــ هل تعلم ؟

فسأل بلهفة :

ــ بماذا ؟

فقلت له :

ــ عندنا امتحان تجربة في الحساب غدا • وسنجلس في الفصــــل بطريقة مبتكرة فيكون في المربع الواحد اربعة تلاميذ • اثنان من الصف السادس كل واحد منهما في زاوية المربع • واثنان من الصف الرابع كل واحد منهما في الزاويتين الاخريين (وسكت قليلا ثم اردفت) وهي طريقة تضمن سلامة الامتحان •• (وهددت باصبعي شخصا مجهولا يحــاول الغش) •

فسرح حمودة ببصره وأخذ يطوح حقيبة كتبه بسرعة اكثر من سرعة مشينا مما يدل على انه في اضطراب • ثم بلع ريقه وعاد يسأل :

ــ لكن •• متى قال لكم مدرس الحساب هذا الخبر ؟!

فأجبته :

ــ عندما كنت عند الحكيمة لتسعف لك اصبعك الذي جرحـــــه (الموسى) وأنت تبري القلم للمرة الثالثة في حصة واحدة •

فتمتم بكلام لا اعرفه • ثم استمررنا في سيرنا ، حتى اذا ما مررنا على احدى الحظائر أمسك يدي وأشار الى حصان واقف بالقرب مــن بابها وأخذ يشرح لي كيف ان والده عندما يركب مثل هذا الحصـــان

يركبه بمهارة ، فقد امتطاه مرة بلا سرج وركض به يسابق الريح ويلعب بالرمح ولم يسقط من فوقه •

ووقفت أسمع ، مذهولا نوعا ، ومصدقا حينا ، ومكذبا احيانا •

غير انني كنت اشعر انه يتكلم كمن يباهي بشيء لا يملكه هـو شخصيا معزيا نفسه عن فشل منتظر في امتحان التجربة الذي كنت دائما من المتفوقين فيه •

ولما آن له ان يتم محاضرته عن طريقة ابيه في ركوب الخيل ، هـذه الطريقة المبالغ فيها والتي كنت أحس الكذب يملأ حواشيها •

لما أتم محاضرته ، استأنفنا سيرنا •• الصمت يظللنا وهدوء الحقول شامل • لكنني كنت قلقا •• كنت قد سئمت مجاراته في اشياء أجهلهـا تماما ، وفي طرفة عين قال فجأة وكأنه تذكر شيئا :

ــ اسمع يا كمال •• هل عندكم (خزنة) في البيت ؟!

فقلت له ببساطة شديدة :

ــ نعم عندنا ••

فسألني :

ــ وأين تحتفظون بها ؟

فأجبت في بساطة أبسط :

ــ فوق السطوح !

وعندئذ انفجر حمودة ضاحكا ، ولكي يفتت أعصابي اضاف الـى ضحكاته الحقيقية النابعة من قلبه ضحكات تمثيلية ساعدته على تدفق ضحكاته •• ضحكات جديدة من أعماق صدره حتى ضقت به فلكمته في كتفه وقد امتلأت عيني بالدموع وسألته :

ــ ما الذي اضحكك في كلامي ؟•• نعم •• انها فوق السطوح مثل ما يفعل كل الناس •

وعندئذ استرد حمودة أنفاسه وقال لي وهو يلهث وفي هدوء :

ـ حسن •• وماذا تضعون فيها ؟

فسكت ثم اجبت على استحياء :

ـ نضع فيها الـ •• اللبن •• والخبز والمخللات ••

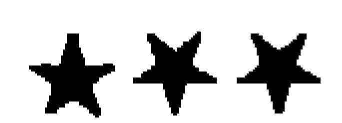
فعاد حمودة الى ما كان فيه ، تسلمه ضحكة الى ضحكة ، ورمى على الارض بحقيبة الكتب الانيقة فتلوثت بالتراب وذلك لكي يخلي كفيه ليصفق عجبا ، وظللت واقفا الى جواره مشدوها خجلا حائرا ، أتمنى ان أعرف سر ذلك العالم البراق الذي يتحدث عنه ذلك التلميذ الذي لا يعرف شيئا الا المفاخرة بما عندهم ، وهذه هي الوسيلة التي بها يستطيع ان يعكر صفو المجتهدين مثل المتفوقين ويجعلهم يحسون في كثير من الاحيان بالخنوع لكنني سارعت وقلت له :

ـ كيف تضحك وأنت ستدخل الامتحان غدا ولا تعرف شيئا عن الربح المركب •• ولا حساب الزمن ؟!••

فأقبل علي وأمسكني من كتفي الاثنتين وهزني بعنف• وأحسست انه يضمر لي شرا ، وان طاقته على الرغم من ضحكاته قد نفذت قبل طاقتي لانني كنت يومئذ أستمد طاقتي من احساس حقيقي اما هو فقد كان يستمدها من احساس زائف •

ثم تركني وقال لي :

ـ ان (الخزنة) ايها الجاهل مصنوعة من الفولاذ •• وفيها نضع الا ••



وتركته وجريت ••

لم اسمح لأذني ان تسمع شيئا مما سيقول ، كنت قد مللت كلامه وانتهيت من ذلك . نعم . وكنت قد سئمت الحديث عن اشياء لا اعرفها، خيالي عجز في هذه اللحظة وقبلها بكثير عن مجاراته في العالم البراق الذي يعرف الكثير عنه .

تركته وجريت فلم يجر ورائي بل وقف ينظر مذهولا ، وأخذ يناديني باسمي كأنه خائف ان يمشي وحده ولو انه لا يحب صحبتي باخلاص . وكنت أحدد موقعه على الطريق بمدى قوة الصوت على المسافات حتى صار يصل وكأنه صدى .

وعندئذ ابطأت في سيري حتى وصلت الى الدار .

★★★

دخلت على أمي منهكا لاهثا معفر الوجه يبدو علي الذل والانكسار وعندئذ ضربت صدرها ثم سألتني عن الخبر فلم أقل شيئا بل لذت بالصمت ثم عدت فسألتها :

ــ اين الخزنة التي نملكها يا امي ؟

فقربت وجهها من وجهي تحملق فيّ كأنها تريد ان ترى من ملامحي شيئا خفيا ثم سألت في دهشة :

ــ آه ..؟! ماذا تقول ؟!.. الخزنة يا بني فوق السطوح .

فصرخت فيها كالمحموم :

ــ وماذا تضعون فيها ؟

فأجابت بصوت بلغ من الخفوت والدهشة الى حد انه كاد يصير حلما:

ــ فيها اللبن والخبز والمخللات .. ماذا بك ؟!

فشددت شعر رأسي وبعثرت الكتب من كيسها المشمع وعندئـــذ اخذت امي ــ بهدوء متبتل ــ تجمع الكتب من على الارض وتقبلهـــا كتابا كتابا وتعيدها الى مكانها من الكيس • كما يفعل الريفي بالخبز اذا ما سقط منه الى الارض وهي في ذلك كله تستغفر الله • وعندئذ أفقت مما اصابني وقلت لها في اسى وهدوء :

ــ ان حمودة يحدثني دائما عن اشياء تحرجني وتقلق خاطري يا امي انه يحدثني عن خزنة عندهم ليست مبنية من الطين ومسقوفة بالخشب فوق السطوح بل مصنوعة من الفولاذ ومثبتة في الحائط ••

فتحت امي فمها ثم قالت :

ــ ماذا ايضا ؟•• اكمل حديثك •

فقلت :

ــ وهم لا يضعون فيها اللبن والخبز والمخللات يا امي بل يضعون فيها المجوهرات •

نطقت الكلمة التي طالما عذبني بها حمودة والتي عجز خيالي عـــن مجاراته في أوصافها ومعرفة حدود عالمها • عالمها الذي عرفت شيئا عنـــه فيما بعد الذي يقبس انواره من ألوان الطيف • ويجعل المرأة اكثر لينا والرجل اكثر ضعفا •• قلت الكلمة لأمي واسترحت وألقيت الحمل على كاهل اقوى من كاهلي •

ثم سكت وأطرقت • ولم ترد علي امي • وساد بيننا صمت • لم أر وجهها لانني كنت خائفا من النظر اليها •• كنت خائفا ان تكـــون المجوهرات التي يحدثني عنها حمودة شيئا يعرفه كـل الناس الا انا • فخجلت من جهلي • لكن يد امي امتدت الي وكأنها توقظني وقالت لي وعيناها نصف مغمضتين :

ــ اسمع يا بني •• الذي قاله لك حمودة حق • فهم ناس يملكون هذه الاشياء ••

فقلت لها :

ـ لكنني لا اعرف المجوهرات هذه ••

فقالت ضاحكة :

ـ اشياء تتحلى بها امه لكنها ليست ضرورية لكل امرأة • ومـــاذا يضايقك في ذلك ؟!

قلت متخلصا من بقية اشجاني :

ـ كلما تفوقت عليه في علم من العلوم تحدث لي عن مجوهرات امه ثم سألني عن مجوهراتك فأروغ ولا أجيب حتى سئمت •

فقالت امي في هدوء وابتسام وكأنها ترقيني :

ـ لا تحزن •• يظهر انه كان من حقي ان أنبهك • لكن لا بأس • فاذا سألك مرة اخرى عن (الخزنة والمجوهرات) فقل له :

ـ ان عندنا منها لكن ابي وأمي دفناها في الارض على بعد بعيد ولن نصل اليها نحن الابناء او نعرف ما فيها الا بعد سنين •• اي عندما نصبح شبانا •

واذا ما سألك عن المجوهرات فقل له : انها كل شيء يلمع حتى ولو كان (عقلا) • لكن مجوهرات العقول زينة ومنفعة لصاحبها وللناس • اما المجوهرات الاخرى فليست الا لشخص واحد وقد يكون ضارا •

وقل له : ان (الخبز) اشرف من (الماس) لان الطريق الى الخبز مستقيم اما الطريق الى الماس فربما كان معوجا •

وقل له :بعد بضع سنين نرى من منا أحق بأن يفاخر صاحبه •

هل تبكي ؟!

لا تبك ايها الطفل فالدموع مجوهرات ايضا خصوصا اذا كانت من عيون غالية !

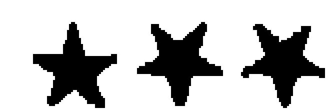
وقبلتني امي فأخذت أشهق بالضحك وأحسست انني صرت رجـلا وانه لا شيء يهزمني • ما دمت أملك كتبا وعقلا وعزيمة • وان المستقبل



المجوهرات .. كل شيء يلمع حتى ولو كان « عقلا »

لهذه الاسلحة وليس للمجوهرات •

ووجدتني ابحث عن كيس المشمع بطريقة بحث الأم عن مكان وليدها حتى اذا ما لمسته يدي اخذته في حضني •



وقد صدقت نبوءة امي ••

صرنا شبانا وتغير حالنا الى احسن • فكأننا عثرنا في الارض على الخزنة الموعودة التي كانا قد اودعاها لنا حتى نصير كبارا •

اما حمودة فلم يعد وهو شاب ذلك الغلام ذا الحقيبة الانيقة ولكن صار ذلك الشاب الرث الهيئة المشتت البال المتحدث دائما عن أمجاد قديمة •

ليلة شتوية دفيئة

حجرته التي ينام فيها هو وزوجته في الطرف الاخير من الدار ، هناك في القسم القبلي ، يفصلها عن الباب العمومي لدارهم ساحة كبيرة فيها فرنان وعدة كوانين ومضخة للمياه .. ثم دهليز مسقوف طويل يؤدي الى الباب العمومي ، يحمل ذكريات من مخاوف طفولته وكذلك ليلة عرسه ايام كان يقطعه جريا مسترشدا بنور ضئيل يصل اليه من الساحة المكشوفة ، ثم.. ليلة رأى زوجته (جميلة) وهي تقطع فيه الخطوات الاولى نحو حياتها وحياته ، فانطلقت حولها من افواه القرويات خمسون زغرودة مثل أنشودة خمسين بلبل ،

وها هي ذي (جميلة) متهيئة للنوم الان في قميص زاهي اللون .. في كفيها بقايا حناء وفي أنفاسها روائح لبان معطر ، وعلى مقربة منها طفلة شعرها منفوش اسود جففته حرارة الشمس من لعبها تحتها في النهار غالية عليه جدا لانها بنته وتحمل اسم امه ايضا ،

وفي حجرة (جميلة) يتعذر على أذن ان تسمع طرقة الباب الخارجي اللهم الا اذا كانت عالية جدا • لكن ذلك لم يكن يهم الزوجين فان أم الزوج تنام في حجرة قريبة في نهاية الدهليز فترى كل داخل وتسمع كل طارق •

والليلة شتوية دفيئة •• واليوم في الدار هو يوم الخميس فالعشاء خبز لين وصينية من السمك في الفرن الريفي • فبعد المغرب بقليل ملأت هذه الحجرة المعزولة روائح شهية بعضها صنعه الطعام وبعضها صنعه الدفء وبعضها صنعته النفس •• وفي البعض الاخير لذة وألم وخوف•

وكانت جميلة تأكل وتحكي • تتكلم عن اشياء عادية تشغل امرأة فلاح ، وزوجها منصت • تجري افكاره مع افكارها تارة وتنفصل عنها تارة اخرى •

وبعد ان انتهى العشاء لبست قميصا زاهي اللون بعد ان ازالت عن نفسها في مكان اخر روائح الدقيق والطبخ والحلب وفاحت من أنفاسها رائحة اللبان العطري وتركت ضفيرتها المجدولتين مهملتين حتى النصف فبدت وعلى ظهرها طاقتان من الشعر الاسود الحالك تتحركان على القميص الزاهي كلما مشت جميلة •

ان في نفسها شيئا تريد ان تعبر عنه • انها تريد ان تعبر عن حبها وخوفها معا • تحس الان بأن هذه الحجرة الصامتة تشي لها بضمير المستقبل ، حيث قصة حب في هدوء الجدول وصفاء مائه تمشي جنبا لجنب مع قصة خلاف مثل تنور ينطفىء ويفور •

وهي الان تحس ان زوجها يكابد نفس الاحساس ، يحمل حبا وخوفا ويعبر عنهما بكلمات عجيبة •

«لقد صنعت لنا عشاء حلوا يا جميلة • كم أود ان أقبل يديك او ان آكل اصابعك الخمس ••!! هل تضحكين ؟•• انني لا أمزح •• انني

مشتاق ان اراك بلا اصابع •• كفاك قطعة واحدة مثل عروسة من القطن» •
وتنبعث منه قهقهة عالية كأنما ليريد ان يخرجها من نطاق تأثير ما قال لكنه ما يلبث ان ينظر الى عينيها •• حيث تقع الظلال على سوادهما المكحول • ونور الحجرة ضئيل يأتي من جانب •• وتلوح العينان في سواد غير محدود من خلال وجهها الابيض •

وتفكر الزوجة الصغيرة : «ماذا يريد هو ان يقول ؟! انها تبرهن له عن حبها بكل لغة • ألم يكفه منها انها استأنست كل كائن في الدار ؟!•• الابقار والغنم • لو يرى زوجها لغة عيون هذه الارواح وهي داخلة عليها في الحظيرة لتقدم وجبة السهرة • وقرقرة الدجاج في الاقفاص •• كل شيء ينمو عندها ويزيد ويتفاهم •• ومنذ شهرها الثاني بعد الزواج تجردت من حلاها الذهبية لتشتري قطعة من الارض زرعها خضروات أحسن من الذهب •• وحتى الالبان زادت بعد ان دبرتها •• واذ ان الأم لم تتخل عن هذا الا بعد معركة باكية وخصام ووئام» •

آه •• لكن •• آه !!••

انها تحس انه يضمر شيئا • ندبة صغيرة من الكره تبدو للعين على وجه حبه ولا تقع عليها عينها الا والحب في ذروته •

وهي في هذه الليلة تراها غير واضحة شيئا ما •

وحاولت ان تبعد عن نفسها هذه الخواطر فأخذت تثير ما كانا فيه من جديد حيث قالت له :

ــ لو كنت استطيع ان اعيش بعيدة عنك بعض ايام ؟!

فتنحنح وسأل :

ــ اين ؟! في بيك اهلك ؟!

ــ هل تظن ان ذلك ممكن •• انا اقصد •• ان أدخل احد المستشفيات لكي أجري العملية التي أجلناها •• وعند ذلك •• تتمكن

من ان ..

ـ من ان ؟! من اي شيء ؟!

ضحك من أنفه ونظر اليها وهز رأسه . لم يجب عن سؤالها فورا فقد كان يفكر في افكارها . فما الفرق بين بيته وبين اهلها ؟! لا شيء .. بل انه من المحال اذا ما دب بينهما الخلاف ان تذهب الى بيت اهلها .. شيء يؤلمها ويؤلمه ولا يترك جرح الخلاف يلتئم .

وتنهد . ثم ضحك ضحكة عالية . وكانت هي منكمشة على نفسها في هذه اللحظة مثل قطة بيضاء شديدة التعلق بموطنها على الرغم من ان الناس فيه حتى ولو كانوا اطفالا مشاكسون يسببون لها متاعب .

وبدا للزوج ان يخرج من الحجرة ويعود . أحس انه في حاجة لان ينظر الى الخارج .. أحس انه مشتاق الى حد العطش ليشم الهواء الطلق . انه يحس بضيق في صدره يصاحبه حنين مبهم وقلق وحب . ويحس بميل لا يقاوم نحو ان يبكيها ويحتضنها .. الاثنان معا .

فخرج من الحجرة وأقفل وراءه الباب المصمت الثقيل ثم وقف في ساحة الدار .

كان اول ما فعله ان نظر في السماء .. فيها سحاب .. رمادي راكد متحد اللون . وليس هناك ثقب يطل منه نجم واحد .

وغمرته لمحة طارئة تغمر كل انسان فيها يحن الى ان يجوس خلال المسكن الذي يؤويه . وعندئذ تحرك صوب الحظيرة .. فاذا المواشي راقدة في سلام ينير مرقدها مصباح قديم عتم السناج زجاجته . حتى الغنم . وبعض المواشي يجتر في ارتياح وبعضها مسبل الاجفان هاجع .. رؤوس ليس فيها «فكر» زمنها فقط هو لحظة الشعور بألم او لذة ..

وقدم لبعضها علفا احتياطيا لان الليل طويل ثم خرج . وما كاد يصل الى ساحة الدار حتى سمع طرقة خفيفة على الباب الخارجي ليس

ممكنا ان يسمعها لو انه كان في الحجرة هناك • مع جميلة •• وجميلة لم تسمعها مثله الان ••

وعندئذ وجف قلبه فليس الوقت وقت ضيوف «ترى من هناك» ؟!

وظل واقفا عند باب الحظيرة في الظلام حيث يرى ولا يراه احد •• وما لبث ان رأى امه تحمل مصباحا وتهرع الى الدهليز ثم سمع صرير الباب الخارجي وما لبث ان رأى امرأتين تعودان بالنور احداهما امه والاخرى امرأة يحبها تماما ويعرفها تماما ••

دخلت المرأتان حجرة الأم وأقفل الباب وعاد السكون الى الدار والليل • لكن الزوج لم يزل في مكانه يسمع من ذاته ضجيجا عاليا يبدد سكون الروح • ونظر الى السماء المطموسة ثم خفض رأسه وتنفس فاذا بحرارة أنفاسه تقع على أسفل عنقه فيحسها مثلما يحس الخد الدموع •

وبحث عن ريقه ثم ابتلعه • وأتاه وهو في مكانه صوت دجاجة تقرقر في تلذذ بالهجوع وعندئذ تذكر جميلة •• تلك التي تجلس بانتظار عودته وراء هذا الباب المقفل الذي يشع من تحته نور خفيف لا تراه العين الا اذا حملقت ••

وعادت اليه صورتها بشكل أروع • شكل ملائكي في شفوف بيضاء •• طاهر محب باذل •• يمنح من يده ومن قلبه •• جدول رقراق يتسرب ماؤه لا يحس به احد • لا امواج ولا منحدرات •• مثل نور العين نرى به الدنيا ولا نرى له شعاعا •• «آه» وتأوه •• حقا •• أحس كأن شيئا ما يوجعه •• كأن ظهره على وشك ان ينشطر •• وفاحت له وهو على مقربة من الباب في طريقه اليها •• الى جميلة •• رائحة لبان معطر •• بدائي من صمغ الغابة لكنه مع أنفاسها يمنح رائحة ذات همس، رائحة تتكلم بلغة الحب •• تثرثر بكلمات بعضها تافه وبعضها عادي وبعضها حكيم •• من قلب جميلة ابكر الذي لم يعرف الحب الا بعد ما



كانت مثل نبات سقي حديثاً

دخلت عتبة هذه الدار •• له •• وشقشقت حولها خمسون زغرودة مثل خمسين طائرا •

كل هذا وهو في طريقه الى بابها لكأنما شحن فجأة وعلى غرة بحب سن السادسة عشرة وان كان الليلة في الثلاثين •• حب حزين راغب يقبل اطراف الانامل ويركع ويناغي ••

وتأوه من جديد • وتمنى بكل شعوره ان يدخل عليها فيجدها باسمة جالسة بانتظاره وقد زالت عن وجهها تلك العتمة العارضة التي ألقتها فكرة راودتها •

وأقفل الباب وراءه بعنف كأنما خشي ان تدخل وراءه تلك التي قابلتها أمه •• تلك التي يحبها تماما ويعرفها تماما • وتمنى على الله ألا تطرق امه عليه الباب لتخبره بقدومها •• فمن المحتمل ان تبيت عندهم •

بدت له جميلة مثل اروع امرأة • كانت متكورة في الفراش بلا غطاء لان جو الحجرة دافىء • قدها المحدود أنهكه العمل • وفي معصمها لمعت عدة غوايش من قشرة الذهب استعاضت بها عن حلاها القديمة • لكن كان في صمتها هدوء يكاد يصل الى حد الخمود وخلف ظهرها نامت البنية الشعثاء التي تحمل اسم امه •

دنا منها وجلس على مقربة من رأسها ثم هزها فرفعت وجهها اليه • لاحت له ابتسامة مستنيمة كأنها تنبؤ فخفق قلب الزوج وتذكر المرأة التي دخلت دارهم منذ لحظات • ثم ما لبث ان تمدد الى جوار زوجته وأخذ بلا مقدمات يقص عليها ذكريات من اجمل حوادث عمرهما المشترك ويده تمر على رأسها حتى اسقط المنديل وأخذ ملمس الشعر الناعم يتلاقى بطريقة الحركة مع كفه المتحننة •

«انت انسانة يا جميلة •• لا ادري لماذا حضرت الى عيني صورتك وأنت تدفعين عود الحديد بين فكي الجمل وتضغطين عليه بقوة

وتصرخين لكي يترك ساقي من بين اسنانه •• آه••• نعم •• لا انسى ••
ويومها كان سيفترسك في الحقل لولا تجمع الناس •• نعم يا جميلة••
ربما لم أكافئك على كل ما تعملين كما تقولين •• نعم •• لكن ••!•
احيانا يقول الناس اكثر مما يضمرون •• وأحيانا يضمرون اكثر ممـــا
يقولون •• نعم •• انني اسمعك» •

ولم يلبث حديثهما ان خفت •• ثم اخذ يتقطع •• وشعر الزوج بلهفة من سيقيم ليلة ثم يرتحل • وبدأت اللهفة والشوق يلونان افعاله بألوان خطفت لب المرأة حتى وصلت الى الحال التي يعجز فيها الناس عن ان يقولوا •• وعليهم ان يعبروا بالصمت •

وعلى سطح الدار في دفء الحطب صاح ديك عدة مرات بقوة طائر يختال بريشه ومرح عين تحلم بنور النهار •• وفي هذه اللحظات كان الزوجان قد بدءا يستسلمان لنوم عله ان يجدد النشاط !!

وفي الصباح الباكر خرجت جميلة من حجرتها الى اعمالها المعتادة في الدار • وكانت في ذلك اليوم اشبه بنبات سقي حديثا •• اخضر ريان يميد مع النسيم •

ومرت بساحة الدار فلقيت الأم •• حيتها بابتسامة وكلمة فلم ترد الام • كان اعراضها في نظرة الزوجة شيئا بلا سبب ولذلك حاولت ألا تفكر فيه : وبعد زمن ليس بالطويل دخلت على زوجها لتوقظه •

كان الباب مفتوحا ونور النهار يملأ الحجرة التي لا شباك فيهـــا ففرك الزوج عينيه وتلفت كأنه يتعرف على المكان الذي هو فيه ، وقابلته ابتسامة صبوح من فم جميلة لكنه أنكرها •• تجاهلها مثلما تجاهلت امه التحية • وظل راقدا على ظهره لا يتحرك • وتمطى وتأوه وعندئـــذ تحسست زوجته جبينه وسألته في رقة وشوق من تريد ان تشاركـــه طعامه •

ـ هل أجهز لك الفطور ؟!

هتف بخشونة :

ـ لا !!

عجبت •• لا شيء يدعو الى هذا •• ما الذي حدث ؟! ان ليلة شتوية دفيئة وحجرة مغلقة معدة كانت مسرحا لحبهما طوال السهرة •• وقد ظل يعدد لها مزاياها التي لم تكن تذكرها كأنها في حفلة تكريم ••

انها لم تكن تدري ان الضرة الحبيبة هبطت عليها فجأة •• فمن حين لحين •• كل بضعة اشهر او بضعة اسابيع •• كثيرا وقليلا وبلا نظام وفي مواعيد غير معروفة تهبط عليها هذه الضرة الحبيبة فتعكر صفاءها •

قالت لزوجها الذي كان لا يزال مستلقيا على ظهره ووجهه واجم كئيب:

ـ سعد •• مالك ؟ هل تشعر بتعب ؟

ـ جدا •

ـ ماذا يؤلمك ؟•

ـ لا شيء •• جسمي كله •• سليم •• الذي يؤلمني شيء خارج جسمي يا جميلة !

اخذتها الدهشة فانفرج فمها الصغير الذي بات طول الليل اورائحة اللبان تفوح من أنفاسه • ثم سألت في همس :

ـ لست فاهمة شيئا يا سعد •

همهم • ثم سكت وفرقع اصابعه وتمطى وتأوه • كان يبدي عدم اهتمام قاتل •• وعندئذ وضعت الزوجة كفها على خدها واستسلمت للتفكير • ومرت لحظات صمت قال بعدها الزوج هازلا او جادا :

ـ كان في بلدنا قديما عمدة يحكون عنه •• كان قاسيا جبارا •• ولم يكن يعيش له اولاد •• ولكي يعيش له ابن يرث ارضه وملكه تزوج من امرأة ثانية وبعد ذلك اخذ في الانجاب من زوجتين لكنه مع ذلك لم

يعش له اولاد . فاعتقد ان دعاء الناس عليه هو سبب موت اولاده . لذلك كان كلما مات له ولد فرض الاحزان على اهل القرية فلا خطبة ولا كتاب ولا قران ، ولو استطاع منع النساء من الولادة لفعل .

صرخت فيه بحدة واستعجال :

ــ ماذا تريد ان تقول ؟!

ــ اريد ان اقول ان احزان بعض الناس قد تكون سببا في هدم افراح ناس آخرين .. هيا .. البسي ملابسك واذهبي الى دار ابيك. وعليك ان تبقي هناك عند والدك وشقيقك حتى تعود اختي زوجة اخيك الى دار ابيك .. لا تبكي .. فان اخاك طرد اختي . وهي نائمة حتى الان في حجرة امي .. وقبل ان تخرج الى ساحة الدار عليك ان تذهبي فان دارنا كما تعلمين لا تتسع لكما معا . وليس هذا طبعا ذنبي كما تعلمين فقد حدث ايضا ان دار ابيك لم تسعك انت وأختي ..

ــ آه .. رأيت ذلك على وجه امك ..

رد بعدم مبالاة :

ــ لا تظلمي امي فانها في هذا ليست وسيط شر . فلو انها غير موجودة ما تغير الموقف كثيرا .. ما دام زواجنا قد تم بهذه الطريقة ..

نظرت اليه تسأل بعينيها : لكن .. ألست تحبني ؟.

فأجاب بعينيه : وماذا يفعل حبي ؟ ان الحب كثيرا ما يعجز !!

ثم رفع صوته :

ــ توكلي على الله .. وحاولي ان تصلحي ما عندكم ليصلح ما عندنا. وضحك وضحك ثم بكى وبكى ..

الشريكان

كم تمنى ان يرى ابنه ضابطا من ضباط الشرطة ؟!•• ويوما ما تبسم من نفسه في شبه سخرية من هذه الامنية لانه كشفها •• فقد كان البارحة في مستشفى قصر العيني عند صديقه الممرض هناك ولما دار بينهمـــــا الحديث عن الابناء سمعه يتمنى ان يكون ابنه طبيبا !!

وتحسس «طلبة» عسكري الشرطة حزامه العريض على وسطه وهو راجع الى الحجرة المشتركة التي يسكنها هو وآخر من زملائه • ووقع حذائه الغليظ على ارض الشارع يرسل الى سمعه شيئا غليظا •

ولم يدر لماذا أحس بحاجة شديـــــدة الى التأوه او بميل الى ان يلكم شيئا •

وعبثا حاول ان يبحث عن السبب •• انه مسافر اليوم ليقضي الليلة عند زوجته «أم نبيل» في «الراحة» التي تمنح له • وهي مقيمة فـــي القرية على بعد خمسين كيلو من القاهرة • هربا من التكاليف ، وطلبا

للمعيشة المعقولة . وهو في مثل هذه المناسبات يشعر قبل السفر بجـو مشحون بالغموض واللهفة والحب .. لكن .. ما باله في هذه المـرة متضايقا يميل الى التأوه او الى ان يلكم شيئا ؟!

وأشعل سيجارة اعطاها له صديقه الممرض كان قد احتفظ بها حرة بلا علبة في احد جيوبه ، وعندما نفث سحابة الدخان وامتلأت خياشيمه برائحته ، هز رأسه في الحال كمن يوافق على فكرة .. فقد عرف لماذا هو متضايق يميل الى اللكم او البكاء .

كان سر ذلك ان زميله في السكن بات طول الليل يحكي له حكاية سمعها باهمال في اول الامر ، ثم ما لبث ان اتنبه ، ثم ما لبث النوم ان طار من عينيه . ثم سهر بقية الليل مفكرا ..

ـ تصور يا «طلبة» .. كنت اريد ان يكون احسن مني ذلك الولد الملعون .. تصور ..

ـ له رزق عند الله ..

فرد زميله بأسى :

ـ مفهوم يا طلبة مفهوم .. لكن .. عندما «عظمت» ذلك الضابط ابن العشرين عاما والذي عين حديثا في «قسمنا» تصورت انه ابني .. آه يا طلبة .. لكن ابني يا طلبة في الخامسة عشرة من العمر . بينه وبين هذا الضابط خمس سنوات فقط .. و ..

وانقطع صوت زميله ، وسكن الليل فظن «طلبة» انه قد نام من ثقل الهموم التي قد تكون احيانا في وزن كابوس يجر الى عالم متوسط بين الحياة والموت .. وعلى كل حال ليس نوما . ظن طلبة ذلك فسرح خاطره الى مكان اخر ، وما كاد يفعل حتى سمع اجهاش زميله بالبكاء وعندئذ جلس في فراشه وصاح به في الظلام : «اخص عليك راجل» ..

وتركه يكمل دموعه ، ليغسل همومه فلا فرق في ذلك بين عين وعين

ولا قلب وقلب • ولا عقل وعقل ان صح التعبير •

انه يعرف ان ابن زميله هذا البالغ خمسة عشر عاما له مأساة تناسب سنه لكنها فظيعة بالنسبة للاب • وهذه المأساة انه رسب في امتحان القبول سنتين متواليتين في القرية • وانه بذلك بلغ خمسة عشر عاما • والضابط الذي يحييه هذا العسكري ويرى فيه ـ وهما ـ ملامح من ابنه خصوصا في العينين ، تخرج من كلية الشرطة وهو ابن عشرين •

ورأى «طلبة» القضية معقولة • لكن زميله عز عليه • ان رائحة احتراقه تفوح من فمه اذا ما تكلم •• وصوت بكائه نوع جديد من الولولة على غلام كبير قد غرق •• في نهر الحياة •

ورأى «طلبة» ان من واجبه ان يخفف عن زميله فقال له :

ـ السعادة ليست في شيء واحد • ربما كان بائع البطاطا الذي جررته بعربته اليوم «مخالفة» أسعد من هذا الشاب الذي تحسده •• أليس هذا من الجائز •

عندئذ ضحك زميله من خلال الدموع قائلا :

ـ أضحكتني •• ذكرتني بذلك المهرج بائع البطاطا • فقد حاياني لأتركه فلما لم أرض اخذ طرطورا من داخل العربة ولبسه وصار يترقص لي بكل شيء فيه وهو يقول : «مخالفة تفوت ولا حد يموت يابو نبوت» •• لكن •• لو كان لهذا الرجل ولد عمره خمسة عشر عاما ورسب في امتحان القبول مرتين ، هل كان يفعل هذا ببال خال ؟!••

رد طلبة في سهوم •• الهم قد انتقل الى قلبه شأن تضامن الانسان مع مطلق الانسان • ثم ما لبث ان تذكر شيئا هاما • لكنه قبل ان يسترسل في افكاره قال لزميله :

ـ ثم •• لا تقتل نفسك حزنا فأنت مريض بالسكر • كثير من الاولاد نبكي من اجلهم في اول العمر ونحن لا ندري انهم سعداء ••



كم تمنى أن يرى ابنه ضابطاً ..

من اجل هذا أحس طلبة انه مهموم •• وهو الان سائر في الشارع الرئيسي لكي يذهب الى حجرته ليأخذ حقيبة السفر • سيقضي الليلة مع أم نبيل زوجته • والسفر في الصيف جميل • سيسهران تحت النجــوم لا سقف فوقهما حيث يناماق هربا من الحر •

وستفوح من «القلة» رائحة بخور وتفوح من «الحلة» رائحة توابل وينقص الدجاج الحي في الدار واحدة ••

ثم يخرجه صخب القطار عن افكاره •• وعاد فتمثل كل الصور التي عرضها عليه زميله في الظلام ليلة امس • وفجـــأة أحس انه يجب ان يحزن • نعم •• «حقيقة ان تنظيف الشوارع ليس أقل كثيرا في نظـر الصحة من العلاج في المستشفيات لكن •• آه •• الفرق كبير ••»

وعندئذ لاح لخياله وجه «نبيل» ابنه • هو في الثامنة من العمر الان وفي السنة الثانية الابتدائية • وأمه •• حلوة •• تنتظر عودته بكل ما في الانثى من مهارة •• لكن : «آه» وقلب كفيه ••

أحس انه محاصر وأنه لا يدري ماذا يصنع • وتذكـــر العمارات الشاهقة التي ذهل لها اول ما رآها في القاهرة ونظر الى الواقفين على «السقالات» باعجاب لكنه الان يرى كل هذا باطلا •• فبنـــاء أمثال : «نبيل» و«صالح» •• و«بثينة» اصبح هو الذي يدعو الى التأمل •• اشياء نبنيها ونحن واقفون على الارض او جالسون •• وهذه هي التي تسعد او تشقى • آه •• كانت دموعه فظيعـــــة عبرت عن آلامه •• وضحكته •• عملت نفس عمل الدموع •

وكان «طلبة» يعرف حياة زميله الداخلية • ويعرف ان ما هناك في منزله لا يعطي الا هذا • لكن بعده من البيت كان له دخل فيما حدث لابنه ، وزوجته لم تتعلم •

كان «طلبة» يصعد السلم المؤدي الى السطح والشمس معلقة على الافق •• في الدار تفوح روائح ناطقة • كل رائحة تشير الى قصد • البخور والتوابل والماء المرشوش على ارض الدار رائحته جنينة لا ترى اشجارها • والصابون المعطر الذي يفوح من ملابس زوجته ومنديـــل رأسها •• والحصير المفروش يبرق تحت النور الغارب ، وهتافات نبيل ابنه بالتحية والسؤال عن «لعبة» كان قد اوصى بها ••

وجلس «طلبة» يتعشى في صمت •• ونجحت الروائح كلها حوله وهو جالس مع زوجته وابنه • لكنها جميعا لم تفلح في شيء •• كل ما يفعله كان بلا شهية • حتى الهدوء المستسلم وغمزات النجوم ووسوسة «غوايش» زوجته وغمز نبراتها •• لم تفلح في شيء •

كان طلبة لا يزال هناك • لم ينفصل بعد عن الساعة التي بكى فيها زميله وضحك •• فليس معنى مرورها انها ذهبت • كان «طلبة» منغمسا فيها ولا يزال يذكر منظر التعيس الذي يمسك بتلابيب تعيس يجره •• ذلك هو زميله وبائع البطاطا • ثم الرقصات التي تحمل معنى «انـــه لا فائدة» والتي كانت تصدر من البائع ، والتي ضحك منها زميله فـــي الظلام • لعله لم يفهم قصدها ولعل «طلبة» فهم منها تعبير «الباليه» يبدو رقصا وهو لغة ••

وكانت زوجته محملقة اليه قلقة عليه •• كانت ترتب نفسها لتجعله ينام خلي البال ، ونظرت الى النجوم وتأوهت وقالت بليونة ريفية :

ــ طلبة •• النجوم حلوة •• الله ؟

همهم الرجل :

ــ أي نجوم ؟!

ــ نجوم ربنا ••

لكنها أحست ان شيئا أثقل من قوتها يقف بينها وبينه وعندئذ قالت بلا ارادة :

ـ نبيل •• كلم ابوك •

فزحف نبيل جالسا على الحصير المصقول حتى التصق بأبيه • القى كتفه على صدر ابيه ورفع وجهه اليه هامسا :

ـ اشتريت لي اللعبة ؟

فدفعه الاب بقسوة حتى اندفع بعيدا عنه •• وذهب يكفكف دموعه •• ثم نام ••

كان يقول لزوجته وهما مختليان تحت النجوم •• يقول بسهولة :

ـ يسألني عن لعبة • ابن زميلي بلغ من العمر خمسة عشر عاما ولم•• و •• و•• و•• و• وأنا الان بعيد عنه : انا لو كنت معه ما قدرت على نفعه •• وأنت •• لا تعرفين اكثر مني •• وهو لم يعجبني في المرة السابقة • سألته فلم يعرف •• و •• وأنا رأيت ناسا يبنون عمارات عالية ببساطة •• بناء نبيل وبثينة محتاج الى مهندس الهي ••

وعندئذ أحست الزوجة ان رائحة البخور والتوابل والصابون المعطر والارض المرشوشة اخر ما يهم طلبة • هناك اشياء اهم لحياتهما من كل هذا فعضت شفتها ثم اصبعها ثم لسانها ، ثم قالت :

ـ الشيخ عبد الصبور رجل في عمر والدي يعيش من تعليم ابناء القرية •

فرد طلبة :

ـ عال ••

ـ صبرك •• سيعلمني انا ونبيل •• وسأكون زميلته في حل الواجبات• وافق على ذلك من اجل نبيل وسترى العجب مني ومنه ••

لكن قل لي •• عندما ينجح ماذا ستفعل لي انا ؟!

ـ ••••

ـ نسيت •• سيكون «نبيل» هو الهدية التي قدمها لي «أبو نبيل»•

وعندئذ استطاع الرجل ان يشم رائحة البخور والتوابل والارض المرشوشة والصابون المعطر ، واستطاعت المرأة ان ترى النجوم •

ونعم الجزاء

لم يشعر الملك بسعادة مثل تلك التي شعر بها في هذه الليلة • لكنها لم تلبث ان تبددت • وعند ذلك سأل نفسه وهو يتقلب في فراشه : «لماذا لا يشعر بأن للسعادة عمقا ؟•• لماذا هي هكذا مثل ظل السحاب ؟!• لكنه تنهد وتقلب في فراشه ، ثم نهض جالسا •

كانت انوار قناديل الزيت تتموج في طبقات متهافتـــــة على فراش شرفته الفسيحة • وبقايا شموع بأطراف سوداء لا تزال في اماكنها بعد اطفائها • وجو الليل دفيء •• رآه عندما هصر ستارا وأطل من النافذة •• طيلسان اسود تحليه النجوم وتفوح من خلاله روائح حديقة لم يغرس الاكاسرة مثلها ابدا •

وملأ صدره بالهواء ووقف يحملق في الظلام ، وسره ان سمـــــع صيحة ديدبان عند بقعة من السور العالي فتبسم وهز رأسه • عاودته لمسة السعادة التي لا تكاد تبقى على شغاف قلبه الا بقدر ما يمر الطيف•

وأخذ يتذكر ..

خيول على أفواهها الزبد مقوسة الظهور والرقاب من ثقل الحمولة تجر عربات نصف قطر عجلة العربة منها ما يقرب من مترين ، سواقها بعضلات عبيد روما ينقلون الاحجار من كل مكان لبناء السور حول قصر الملك . بعض هذه الاحجار اخضر من طحالب البحر وبعض هذه الاحجار أحمر لانه كان مسكنا لحيوانات قتلت ، وبعضها أسود كأنه كان على فوهة بركان . ولما ارتفع السور بجفائه وغموضه وأسراره كأنه طلاسم ركب الملك عربة ودار حوله في الليل ، وعندما رأى الظلمات ترسم خطوطها مع تقاسيم أحجار السور رضي قلبه .. سيكون في مأمن . ثم .. هناك «قمرات» على حافة السور العليا . يقف فيها حراس بشوارب الاسود وعيون الصقور ..

وتحسس الملك اطراف الستارة ، وتنهد ، انه لا يكاد يشعر بالرضا ولا يكاد يعرفه مع انه قد رآه مرة ، رآه واضحا جميلا بسيطا يكاد يمسك بأطراف الاصابع ، هناك في أبعاد هذه الحديقة التي يطل عليها الان والتي تفعم الليل بروائح ملأت مخدعه .

كان الصباح باكرا يومئذ لا يستيقظ فيه الملوك في العادة لكن هموم قلبه ايقظته . فهذه التي بنى القصر من اجلها سمع عنها انها توقفت في احد أسفارها عند كوخ فلاح وحدثته وشربت من جرته ، ولاجل هذا استيقظ مهموما .

والشمس لم تفرش العشب بعد في حديقة قصره ، وهناك غلام يلعب في يده فأس صغيرة كأنها بنت لفأس أبيه الجنايني الكبير .. وأبوه بعيد عنه في مكان ناء من الحديقة ، والغلام يسوي بفأسه احد احواض الزهور .. يعمل ويلعب ..

ويقف الملك يتأمله في ذلك الصباح .. لم تكن الحديقة مظلمة هكذا

كما يراها الان تحت طيلسان الليل ، ولم يشعر به الغلام ، وكان يغني اغنية للفأس الصغيرة . كان يقول لها : «اكبري لأكبر معك ، فعندما يطول ذراعك سيطول ذراعي ، وطالما انت صغيرة سأظل انا صغيرا .. اكبري».

كان صوت الغلام في ذلك الصباح وهو يضحك وحيدا مثل هذا الطائر الذي يتناهى الى سمع الملك الان في الليل ، وتمنى الملك ساعتئذ ان يجلس على الارض امام حوض الزهور وهلة صغيرة لكن هذه اللمسة ما لبثت ان ولت سريعا مثل كل اللمسات فتنهد . فقد شم رائحة الرضاء وعندئذ تنحنح . جفل الصبي ونهض واقفا وفأسه في كفه ينظر اليـــه بعينين متسائلتين تقولان : «من انت» فوضع الملك سبابته على فمــه يطلب من الغلام السكوت وهو يلتفت الى ناحية اخرى من الحديقة لكي يوهم الغلام ان احدا قادم اليهم . وبدا على وجه الصبي حيرة ، وأخذ ينظر بحركة لا ارادة فيها وعندئذ قال له الملك هامسا :

ــ ان الملك سيأتي من هذه الناحية .. هس لا تتكلم .

ــ اذن فلست انت الملك ؟!

هز رأسه نفيا فبدا الهدوء على وجه الغلام .. وبدأ يتحرك مبتعدا عن محدثه وعلى وجهه امارات من شبع من حديث .. مل .. لكن الملك أمسك به من صداريته ليستوقفه فنظر اليه الصبي نظرة من يعاتب على الحرية وسأل بعينيه : «لماذا ؟» .

فقال له الملك :

ــ لماذا لا تنتظر حتى تراه ؟!

فأجابه الصبي بهدوء :

ــ لانني لا اشعر برغبة في ذلك .

سأله دهشا :

ــ ولماذا ؟

فرد ببراءة :

ـ لانه لا يشعر برغبة في ان يراني •

ثم جرى هاربا بين الخمائل الحديثة الغرس وفأسه ذات اليد الصغيرة في يده الصغيرة • لكن منظر عينيه الراضيتين لم يبارح خيال الملك كأنما كان هذا الصبي خائفا على طمأنينته ان يأخذها احد ••

عيناه سوداوان مثل هذا الليل يطل عليه من نافذته الان وأمامـــه خضرة الحديقة المبهمة تترامى حتى السور العظيم ، ذلك الذي لم يبن سور مثله قط • وكأنما لذ للملك ان يمتحن يقظة حراسه فترك النافذة ودخل الى غرفته وأحضر طبقين من الفضة ووقف في النافذة وصفـــق واحدا منهما بالاخر فانتشرت همهمات •

كان هو قد أسدل ستائره وتمدد في الفراش في الداخل •

وعندما لقي حبيبته في اليوم التالي وصف لها آلام نفسه ، انه قادر على ان يمتلك كل شيء لكنه عجز عن ان يمتلك قلب غلام صغير لعدة دقائق • ويرى في عيون البسطاء سعادة ذات رونق حقيقي هو على يقين من ان قطرة واحدة منها تفعل في حياته ما لم يفعله ذلك القصر الذي تحدث به الملوك • وعندئذ سأل حبيبته التي بنى من اجلها القصر عن سر عناء نفسه • فأجابته : بأن الذي يملك عادة شيئا لا يملك الناس مثلـه فعليه ان يعيش في خوف • فهذه ضريبة التفاوت • وهأنتذا تملك اجمل شيئين في الوجود ؟!

ثم قرقرت ضاحكة فمسح الملك بكفه على شعرها المخملي وأغمض عينيه ثم قال لها :

ـ انت يا من شربت من جرة فلاح اثناء أسفارك •• لقد صنعت لك من الينابيع ما هو في صفاء الفضة ونظافة الندى • حوريات من المرمر على حوافي كل ينبوع يسكبن الماء لحبيبتي طول الليل والنهار في انتظار

شربة • وأوصيت مستحضري العطور ان يأخذوا روح كل زهرة في حديقة القصر لكي يصنعوا لثيابك عطرا محرما على غيرك • ومن اجلك نقلت الاحجار من كل لون : أخضر يغطيه الطحلب وأحمر يلوثه الدم وأسود كأنه كان على فوهة بركان • انني يا حبيبتي أبحث عن الرضا الحقيقي الذي رأيته في عين الغلام في الحديقة •• لو أطل من عيني يوما فسأكون أسعد الناس • وهأنذا ارى شيئا منه يطل من عينيك فلماذا لا تمنحينني نفحة منه • فقد تعلمت ان قلوب الناس تطل من عيونهم فتلك هي النوافذ الطبيعية للقلوب يا سيدتي •

لم تكن هذه الفتاة تحب الملك • لكن معظم الفتيات كن يحسدنها على حظها • وكانت هي تتساءل عن الحظ • كانت تؤمن ان القدرة ليست معنى مرادفا للسعادة باستمرار • فكثيرا ما تكون القدرة سبيلا للتعاسة •• مثل هذا الملك •• الذي ترك الناس يبحثون عن حجر بناء فلا يجدونه ومع ذلك هو شاعر بالخوف • ثم يطلب منها ـ ان تمنحه ما لا تدخره له •• انها تحب صانع ادوات موسيقية •• وكل قيثارة صنعها كان اول نطق لها نغمة حب مهداة اليها •• في حياتهم ظمأ وجوع وشبع وري •• ما احلى هذا !!• ليس قدرة جبارة تجمع الاحجار من كل لون الاخضر منها والاسود والدامي •

لكنها كانت تطلب منه ما يعجز عنه دائما فقد طلبت ان يبني لها قصرا لم يسكنه ملك قط • وقد فعل • وهي حتى الآن لم تستطع ان تنسى حبيبها • وجرة الفلاح التي شربت منها طالما حدثها هو عنها •• عندما كان يخرج الى الخلاء ليذكرها او ليتسلى عن حبها •• فشربت هي الاخرى من فمها الخشن •

وفي هذه الليلة قام الملك يطل على الحديقة • وقف في النافذة نفسها تلك التي وقف فيها منذ ليال • وكان في قلبه هم كبير أفاق منه ليطلب

احد الحراس . فلما دخل عليه قال له الملك :

ــ عليك ان تأتي الي بالبنّاء حالا .

البناء الذي بنى هذا القصر يا مولاي ؟

فرد في صخب :

ــ هل تظن انني اقصد ذلك الذي بنى داركم ايها المغرور الغبي .. اذهب !

فانصرف يرتجف . وما لبثوا ان جاءوا بالبناء . دخل على الملك وهو لا يدري ماذا يُريد فهذه ساعة متأخرة من الليل . لكنه على كل حال دخل عليه مبتسم الاسارير !

ــ يسعدني يا مولاي ان تطلبني في هذه الساعة من الليل . ذلك يدل على اهتمامك بشخصي الضعيف الذي يود ان يعيش خادما لكم .

فسكت الملك قليلا ولمعت عيناه بما لم يستطع البنّاء ان يراه . ثم اخذ يحدثه عن الاخبار التي تواردت مع بعض القادمين من التجار تدل على ان احد الملوك ينوي بناء قصر لن يجعل لقصره ذكرا .

لكن البنّاء رد على الملك في غرور خفي وبطريقة كان موقنا انها ستحمل الامان لقلبه :

ــ من المحال يا مولاي ان يبني ملك قصرا مثل قصرك . وحتى لو استطاع ذلك بما يملكه من ذهب فانه لن يستطيع ذلك الا اذا بنته يداي هاتان .

غمغم الملك :

ــ يداك هاتان !

ــ نعم . وهما من ادواتك ولن تعملا الا لرضاك !

ــ حسنا .

وساد صمت . ونظر الرجل الى الملك فوجد على ملامحه شيئا غامضا



كانت تؤمن بأن القدرة ليست مرادفة
للسعادة بدليل . . هذا الملك

يبدو في صورة تقدير لعظيم فنه واخلاصه ، وكان الملك في هـــذه الوهلات سابحا في رغبات حبيبته التي لم يعرف رغباتها قط •• فلما أفاق من خواطره قال للبناء :

هناك أبراج تبدو في الليل شديدة الغموض •• ما اروعها •• هلم ايها السيد فأشعل الشموع في هذا الشمعدان وتعال معي نلقي نظرة على هذا السحر • وما اعظم ان تشرح لي مقاصد الاحجار حين تضعها يـد بارعة بعضها جنب بعض فتصبح ذات لغة كالشعر والموسيقى •• آه •• هلم ايها السيد •

وعندئذ غمر الغرور قلب البناء ومشى بالشمعدان يسبق الملك • أنواره تتراقص فترقص بها ظلال الرجلين •• البناء والملك •• وسمع الحراس ورأوا لكنهم سكتوا •• وبدا السور الغامض البناء ذو الاحجار الفظة وكأنه قادر على محاربة الناس اجمعين ، ومن خلال الحديقة انبعث صوت طائر غريب • زعق مرتين وسكت وسأل الملك البناء عن اسم هذا الطائر هل يعرفه ؟ فرد الرجل والشمعدان ينتقل من يد ليد • لعلـــه «مالك الحزين» يا مولاي •• فمط الملك شفته وسأل البناء :

ـ ولماذا هو حزين ايها البناء ؟؟

ـ يقولون لانه لم يدق حلاوة الحب •

ـ لكن الطيور شديدة العشق ولهذا فهي كثيرة المرح •

ـ لعله عيب في السلالة • هكذا يقولون •• هذا أول باب البرج يا مولاي ••

كان نور الشمعدان يرتمي واهنا على الدرج الحجري وروائح مثل أنفاس الكهوف تنبعث من المكان •• والبناء يصعد بظهره امام الملـك لينير له الطريق ويحدثه في اخلاص وخوف غامض •

وعندما بدأ الاثنان يلهثان كانا قد بلغا مرتفعا شاهقا • ووقف البنّاء يشرح لغة الاحجار وكيف تتم العقود بلا مؤنة وأثر المداخل الطويلة على النفوس • وكان الليل شديد الصمت والشمعـــــدان على الارض •• والسقف مظلم وظل الملك والبنّاء يشتبكان وينفصلان بين لحظة وأخرى•

وكان الملك صامتا • مثل تلميذ يسمع ولا يعي والاخر مسترسل في الحديث • يبدد المخاوف بالكلام مثل تعويذة لفظية يتقي بها المخاطر • لكن صمت الملك كان متصلا لا شيء يقطعه •

لا نحنحة ولا همهمة ولا ثناء ولا اعتراض •

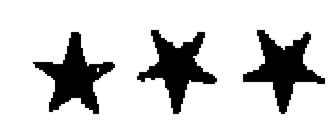
ووقف الملك وأطل من اعلى البرج ، كانت الارض بعيـــدة وتحت البرج تمثال «قاذف القرص» الروماني ، يغطي الظلام جسمه الفذ •

وظل الملك في موقفه ظهره للبنّاء الذي يتكلم ويتكلم والشمعدان على الأرض يرسم ظلالا مرتجفة في اماكن شتى من البهو الذي يقفان فيه•

وشعر البنّاء انه يكلم شيئا لا يسمع لكنه خاف ان يسكت فأعاد ما قال على امل ان يقول له الملك : لقد سمعت هذا من قبل لكن شيئا من ذلك لم يحدث بل ظل هو واقفا في مكانه حتى فرغ البنّاء مـــن «درسه» وصمت فلم يلتفت اليه الملك • فاذا بالبنّاء يخاف قوة الصمت التي تظلل المكان عندما بدأت الشموع تجري نحو نهاياتها •

عندئذ شرع في اعادة ما قال مرة ثالثة لكن الملك ما لبث ان التفت له وقال له : تعال •• تقدم لترى جمال هذا المنظر ايها الرجل الطيب •• لن تبني مثل هذا ابدا •

وتقدم البنّاء وأطل • فدفعه الملك من اعلى ـ فجأة فسقط علـــى التمثال تحت النافذة فاقد الحياة •



«كنت تخافين يا حبيبتي ان تسكن حسناء اخرى قصرا مثل قصرك ومن اجل حبي لك حرمت «سنمار» البنّاء من الحيـــاة .. فهل انت سعيدة ؟ » .

لم ترد عليه الفتاة . انصرفت ليلتئذ ولم يعد يراها . كأنما كان ذلك هو المدخل الوحيد الذي شوى قلبه بالالم . وقالوا : انها فرت وحدها . وقالوا : انها فرت مع حبيبها صانع الآلات الموسيقية . لكن الملك ظل بعد ذلك طوال سنة كاملة كلما جن الليل يحمل الشمعدان وحيدا ويذهب الى نفس البرج وينازع نفسه ساعة كاملة ان يلقي بجسمه من حيث القى «سنمار» البنّاء .. حتى وافته المنية .

الست كريمة

كأي فتاة من سكان المدينة لا تزال في مقتبل العمر ولم تر الريف الا وهي صغيرة .. شعرت بوطأة الليل عندما انتهت سهرتها عند الطبيب وزوجته وغادرت الجناح الصغير الذي يسكنونه في حديقة المركـــز الاجتماعي في القرية وأخذت طريقها الى غرفتها في الجانب الاخر .

وكان يؤنسها ، وهي في الطريق صوت كلب ينبح ومصباح صغير حملته في يدها ليلقي دائرة من النور امامها .

وعندما اغلقت على نفسها الباب واستلقت في فراشها أحست انها على غير ما يرام . ووهلة بعد وهلة وهي مستغرقة في التفكير شعرت بمـــا ينقصها .. وعرفت انه السكينة .. والسلام !!

ولم يزعجها الامر كثيرا لانها تعرف انه غير متعلق بعملها . فهي منذ دخلت القرية .. منذ ستة شهور قامت بمائة عملية ولادة نهضت الامهات بعدها بسلام . وكانت نسبة الذكور فيها عالية . ولذلـــك فقد كانت

الفلاحات يقلن عنها : «ان سمرة وجهها احلى من بياض اللبن» ••

نعم ••

ليس هذا هو ما ينغصها • بل انه خوف من مجهول •• شيء يتعلق باحترام الناس لها • فهي تعرف انها «حكيمة» ولكنها على الرغم من حداثة سنها ووجود طبيب في المركز فانهم ينادونها بكلمة «دكتورة» ويعتدلون في جلساتهم على المصاطب وهي مارة عليهم •

وكانت عند ذلك تقول في نفسها «ما احلى ان يشعر الانســـــان بقيمته !!» وتمنت من صميم قلبها لو ان والدها كان حيا ومشى خلفها من على بعد •• بحيث لا يشعر الناس انها بنته •• وخيل اليها انه لو كان حيا ، ورأى هذا ما مات ابدا •• لعاش طول الدهر •

***

لكن جوها الداخلي في المسكن كان يخيفها • وهي قبل ذلك لم تنم وحدها لا في مدينة ولا في قرية ، وقد شعرت منذ الليلة الاولى بثقل مسئولية حراسة الانسان لنفسه •• «آه كثير من الاشياء يعجز المرء ان يعمله لنفسه ولا بد له من يد الغير • والحراسة من هذه الاشياء» •

كان الطبيب يأخذ زوجته نهاية كل اسبوع وينزل الى المدينة حيث اهلها وأهله ولا يعودان الا يوم الاحد • والمشرف الاجتماعي يبيت عند اهله كل ليلة لانه من بلدة قريبة • وهناك الخفير المكلف بحراسة المركز •• نادت عليه ذات ليلة من الليالي التي يغيب فيها الطبيب فلم يكن موجودا• وكتمت ذلك عن نفسها وعن الناس •• عن نفسها لتتوهم ان هناك من يحرس المكان • وعن الناس حتى لا يصل الخبر الى من لم يعرفه • لكنها



سمرة وجهها أحلى من بياض اللبن ...

سمعت امرأة سليطة اللسان تناوش الخفير في النهار وتعيره بأنه ينام في أحضان زوجته فلا يؤدي عمله في الليل خوفا من ناس تشاجر معهم ذلك الجبان •

غير انها ما كانت تخاف احدا من الفلاحين • كانت موقنة بأن كل فرد منهم حارس لها •• فلقد سهرت ليلة بطولها حتى طلوع النهار الى جوار امرأة تلد ورأت على وجهها سكرات الموت ثم •• انتصرت وولدت ولدا • ونسب القرويون اليها قدرة خارقة لا تخلو من مبالغة الريفي حين يتحدث عن «المهارات» و«الكرامات»•• ولكنها على كل حال سعدت بهذا الوهم •

وقالت في نفسها : «لو ان ابي كان حيا ورأى هذا المجد الذي بنيته في القرية !» •

ثم ذكرت شيئا اخر : هو ان حالة الولادة التي تحدث بها النـــاس وقعت في دار تعرفها •• لها بها صلة قديمة •• ربما كانت أعمق صلـة تربط «قلبا» بمكان •

فهذه الدار كانت دار ابيها : انها تعرف ذلك من امها •• وفي ذهنها ذكريات غامضة مثل الرؤى والاحلام عن كل حجرة فيها • لكن «كريمة» أحست ان هذه المرأة تعاني آلام المخاض ــ ربما في البقعة التي ولدتها فيها امها • والفلاحون في القرية لا يعرفون ذلك ••

لا يعرفون انها بنت عبد اللطيف زعزوع • كل الناس ينادونها باسم الست كريمة•• فقط • ولهذا فان الامن الداخلي بالنسبة اليها غير محقق•

انها اصبحت عدوة «للداية» منذ يوم وفودها • تلك المرأة القارح ذات العود والجسم والارداف والصوت الخشن والحيلة ، والتي اكلت

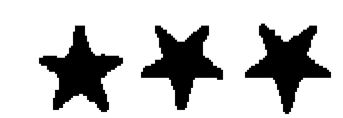
دجاج القرية • ودعت كل مولود فيها بابنها : «آه لو تعلم هذه الداية بأنني بنت عبد اللطيف زعزوع» !!

الداية والطبيب مصدر قلق لها ••

اما المشرف الاجتماعي فهو نقطة الحنان في الموقف •• لكنه في معظم الاوقات بعيد عنها •

***

ولما ماتت زوجة «الشاذلي» صياد السمك من آثار حمى بعد الولادة لم تكن في الحقيقة الا (ملاريا) ومات بعدها ابنها •• اخذت الداية تشنع على «كريمة» وتتهمها بأنها لا تعرف شيئا • وبأن النحس اخذ يجري في قدميها نحو الامهات • وسمعت ذلك من فم الطبيب الذي ينفذ (كلمة العلم) في كل ما يعمل •• سمعتها منه في احدى الليالي وهي ساهرة عندهم وفي لحظة قامت فيها زوجته لبعض شئونها •• وملأ الغيظ قلبها• كان ممكنا جدا ان يقضي على مثل هذه الخرافة بدل ان ينميها • وأحست كريمة في نظرته شيئا غامضا •• أحست انه يطلب منها ما لم يخطر على بالها قط • وما دام لم يخطر على بالها فانها لم تشعر توا بمقدماته • ومالت — بدون شعور — الى التأويل الحسن •



وبغريزة المرآة شاءت ان تمتحنه • ولم يزد الامر عن نظرة لينة

مستنيمة رددتها بينه وبين الباب الذي ستعود منه زوجته • فطفح وجهه بالرغبة التي حركت في قلبه هذه الضغائن •

وبعد عودة زوجته استأذنت في الانصراف • وصافحت كلا منهما • لكنها تعمدت ان تهمل كفها في كف الطبيب لوهلة اتاحت لها تأكيدا اخر بأن هذا الرجل يؤذيها لانه يريد شيئا •

★★★

لم يكن الهدوء الذي يشمل المكان في هذه الليلة عاديا بعد ان عادت الى غرفتها •• كان صمتا أبكم •• كان الليل كف عن التنفس • لذلك باتت تسمع دقات قلبها وشهقات بكائها • لانها موقنة ان قوى الشر في (الجهل والعلم) •• الداية والطبيب تحالفت لاتحاد الهدف •

والظلام الذي يغري الريفي بالخروج للثأر او الجريمة هو نفسه الذي طحن رأس «كريمة» بالافكار • حتى كادت تجزم بأنه لولا وجود (الظلام) ما كثر التفكير في الجرائم •

وطرأت عليها فكرة عادية ، وهي في الفراش عجبت لماذا غابت عنها: «لماذا لا تنتقل الى قرية اخرى •• وكله عمل !!» غير ان تعليل مثل الفكرة سعى اليها وكأنه سهم مضيء •• فوجدت نفسها تهمس : «انه حمدي ••» المشرف الاجتماعي • الانسان والرئيس الذي ارتبط في نفسها مع ذكريات الكرامة •• والنجاح •• والجد •• وربما العطف •• وهو سر من الاسرار التي جعلت الفلاحين يتداولون في جلساتهم وهي مارة عليهم • «آه •• ورأى ابي ذلك» •

ثم قالت وهي تعض شفتها : «لو لم اكن بنت عبد اللطيف زعزوع . لو لم اكن بنته !!» .

***

ومنذئذ بدأت معاملة «كريمة» تلين مع الطبيب بدأت زيارات الداية لعيادة المركز .. تقل .

ولم يكن ذلك مدعاة لسروز «كريمة» بل مدعاة لزيادة خوفها .

ولم يكن المشرف الاجتماعي من ذلك النوع الذي يجيد الكلام مع النساء . بل كان حذرا وربما طويل الصمت . لكنها كثيرا ما ضبطته وهو ينظر اليها في حب .. نظرة رجل لا يستطيع ان يقول ما يكنه لاعتبارات ليس في وسعها ان تعرفها الآن .

وأحست كريمة ان حادثا ما على وشك أن يقع .. مجرد احساس تأكد لديها يوم الاحد التالي عندما عاد الطبيب وحده من المدينة وترك زوجته هناك ليعود اليها يوم الخميس .

وكان طبيعيا ان تسأل الطبيب عن سبب تأخر زوجته :

ـ لعله خير !!

وكان ذلك اثناء العمل في النهار . فأجابها وقد كسر احد جفنيه :

ـ هل اهتممت بالأمر ؟

وكان لا بد ان تجيب فردت في ارتباك :

ـ طبعا .. انه مهم .

فسكت قليلا ثم اجاب وهو يطهر يديه بشيء من الكحول :

ــ أم سليمان الداية •• مريضة !؟

ــ شفاها الله •

فأدار وجهه نحو النافذة وأولاها ظهره :

ــ انها تحبك يا كريمة •

فردت في تهكم :

ــ من القلب للقلب رسول •

فقهقه ضاحكا •• وحملت ضحكته ما عجزت عن تشخيصه •• لكنها شعرت بشيء ثقيل يهبط على قلبها •

***

لم يكن نورها قد انطفأ في ليلة ذلك اليوم ••

سهرت تكتب بعض خطابات • منها ما هو لأمها ومنها ما هو لصديقات ••

«انني اشعر بالقلق ••» وأخذ القلم في انسيابه نحو كلمة اخرى في خطاب الصديقة واذا بابها يطرق • كذبت سمعها ولكن سكون الريف يجسم حتى خفقة القلب • ونهضت واقفة فاذا بالطرق مع صوت الطبيب وهو يقول :

ــ «كريمة•• كريمة •• افتحي •• فيه حالة آ •• آ ••»

وأسرعت وفتحت الباب • بعد ان طرحت على كتفيها شالا • ودخل الطبيب في الحال وأقفل الباب وراءه •• سألته لاهثة :

ــ حالة ؟•• ولادة يا دكتور ؟!

فهز رأسه نفيا وظهره الى الباب •• وفحصته هي في صمت •• رأت تهدج أنفاسه وشعر صدره البادي من (البيجاما) وكان واضحا انه خاض معتركا من الافكار قبل ان يقدم على هذا العمل • وتلفتت حولها كأنها تبحث عما تدافع به عن نفسها لكنها ادركت ان اي خطوة غير مدروسة قد تفضي الى نتائج محزنة • فسألته في مسالمة :

ـ هل هذا تعبير عن الحب يا دكتور ؟!

فهز رأسه بالايجاب • فقالت :

ـ لكني انا شخصيا أفضل تعبيرا أخف • ان ذلك يخيفني •• آ •• آ •• انا •• اراك الآن غير الرجل الذي اراه في النهار • فهل الليل يغير الاشياء ؟!

ـ ربما •• انا •• آ••

فقاطعته :

ـ انا اعرف ما تريد •• وأنا •• مستعدة لمبادلتك عواطفك •• لكن هل دفعك الى حبي ان زوجتك غائبة ؟!

ـ لا •• انها •• انها مسألة قديمة •

ـ هل تحب ان تتصارع كما تتصارع الحيوانات؟•• ربما حدث •• ما ليس في حسابنا ؟!

ـ لا ••

ـ اذن نتفاهم • انت طبيب •• وتحب •• تمام ؟

فهز رأسه ايجابا :

ـ كنت متوقعة هذا • ولو كان لي ان أحذرك لفعلت •

ـ لماذا ؟

ـ من الممكن ان تعود بعد نصف ساعة •• واذ شئت ذهبت انـــا

اليك ••

ففتح فمه مدهوشا وقال :

ـ في •• في •• فراش زوجتي ؟!

فضحكت وهي تغالب اجهاشها بالبكاء :

ـ فراشها أقدس •• من •• روحي ؟ آه ••

وبلعت ريقها وهي تتأوه وصمتت ثم اكملت :

ـ اذن فأنا مصرة على ان يكون هناك •• مالك تنظر هكذا •• انا لا اخدعك •• في استطاعتي ان اصرخ فيستيقظ الفلاحون •• و ••

ولم يمهلها •

وخرج ••

وتركت الباب مفتوحا حتى ابتعد ثم اوصدته وارتمت على فراشها كالجريح المنزوف حتى تسللت الشمس من النافذة الشرقية •

★★★

ولم يمض يومان حتى التقى الطبيب بالداية • وسألها في فضول : عما اذا كانت تعرف رجلا اسمه عبد اللطيف زعزوع ؟ وفتحت الداية عينها في عجب كأنها تسأل عن العلاقة ؟! ثم ضحكت في تهالك • فلم يكن رحمه الله الا «لحادا» •• وكان ذا صوت جهوري مضحك يستأجره الفلاحون للنداء عن حاجاتهم المفقودة : «يا اولاد الحلال يا اولاد الحلال معزة تايهة من البارح العصر • والحلاوة ريال يا اولاد الحلال». ولما مات رحلت زوجته بينتين وأقامت في المدينة •• واحدة منهما هي «كريمة» •

ـ «بنت اللحاد .. اصبحت دكتورة ؟» .. ها ها ها !!

ـ «ابوها يدفن . وهي تولد» .. عال والله !!

ـ «كان ابوها جميل الصوت حين ينادي على المعيز المفقودة» الله يرحمه !!

ولم يعودوا يعتدلون في جلساتهم وهي مارة . وتهامسوا . وسمعت ضحكات . وشعرت بالغربة .

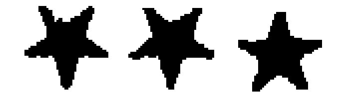
***

وفي احدى الليالي بينما كانت في غرفتها بالمركز كان الجدل محتدما بين الطبيب والمشرف الاجتماعي حول هذه القضية في منزل احد الاعيان. وسفه المشرف وجهة نظر الطبيب في انه كان يجب عليها ان تشتغل في قرية غير قريتها من اجل راحة نفسها واحترام الناس الذي هو مصدر الثقة . ولم يكن احد يعلم بالحلقة المفقودة في القضية بينها وبين الطبيب.

وندد المشرف الاجتماعي بمثل هذه النظرة واعتبرها في المجتمع الريفي آفة تجب مقاومتها مثل الآفات التي تأكل الزرع والفاكهة. وعندئذ أحرجه الطبيب قائلاً له :

ـ يعني هل من الممكن وأنت مقتنع بالامر .. ان تقدم على الزواج من كريمة ؟..

وشخصت عيون الناس . ولم يكن المشرف من الذين يفرقون بين العقيدة والعمل . لكنه عز عليه ان يعلن رأيه في مجال التحدي . فخرج صامتا وتركهم يتلفتون .. ولم يحيي احدا .



ولم يمض على ذلك اسبوعان حتى اعلن نبآن كان لهما في القرية وقع وصدى ظل الى امد طويل • هو انتقال كريمة والمشرف الاجتماعي من القرية • بعد اعلان خطبتهما •• الى قرية لها حظ من السعادة بهما لـم توفره لنفسها القرية الاولى •

لم يشعر انه فارقها الا هذه اللحظة • حين وضع قدمه على بـلاط الرصيف في ساعة متأخرة من ليلة خريف • كان عائدا الى القاهرة • كان في الاسكندرية يودعها • ذلك شيء موجع • وعلى الرغم من انه ينظر الى جمالون محطة القاهرة الزجاجي ويسمع زفير القطارات تحته وهمس الشيالين في جلابيبهم الزرقاء •• على الرغم من كل ذلك فـان روائح الميناء لا تزال مستولية عليه ، وكذلك اصواته •

وأقلعت الباخرة في المساء • صفيرها مع البواخر الاخرى كأنه نواح مضبوط •• ليس له قرار ولا جواب ولكنه يصل الى قرار القلب •

وتذكر ذلك وهو ينادي سيارة اجرة لكي يصل الى بيته سريعا• وألقى الى السائق باسم الشارع الذي يقصده ثم انزوى في الركن وقد عاوده كل شيء كأنه حاضر بين عينيه •

رحلتهما في القطار معا الى الاسكندرية لكي يودعها مسافرة الـى الخارج •• والمقعدين المتجاورين • والكتف تلمس الكتف كلما مـر القطار بمنعرج • والعيون تقول •• والصمت مخيم وأحد المسافرين يطلق راديو على مقربة منهما فارضا عليهما الاغاني والاحاديث ، وهما صامتان• كل عين من عيونهما مربوطة بالشفة • لو نطق احدهما لسالت الدموع•• كل ذلك غير مهم • لكن المهم هو اخر كلمة قالتها له وهي تصعد السلم الى الباخرة • ولم تكن اخر كلمة الا ••

وعض شفته وتأوه • ونظر الى الشارع عبر زجاج التاكسي فرأى

لافتة كبيرة تحمل اسم احدى المدارس • والسور ممتد والحدائق خضراء نائمة تحت الليل •

وذكره هذا بزوجته المسافرة من جديد • ما كان أروعها وهي تتهادى خارجة او داخلة في مثل هذا الباب !!•• بوجهها المسالم وقدها الضعيف ، انه لا يدري كم كان ضعفها يؤثر في قواه •• كان يستلذ شكواها كلما التقيا قبل الزواج وكان يعزو كل ما بها الى فرط الحساسية •

وقرقرت بالضحك يومئذ وقالت له : هكذا قال لي الاطباء • وقابل ضحكتها الرطبة بضحكة خشنة ورد عليها :

ـ الزواج سيغير كل شيء !

فأطرقت نحو الارض وقد احمر وجهها جدا ، كان في لون يدل على الحياء القاتل • وكم كان سعيدا بهذا الاحراج !

***

هذه سيارة الاجرة لا تزال تقطع به الطريق • الشوارع مغسولة • ذات لمعان اسود مضيء تنعكس عليه اشباح المارة في صورة نادرة الغموض •• ظلال سوداء لا معالم لها •• وهكذا كانت افكاره ••

كل الامور سارت كما كانوا يتصورون • نعم ••

ـ ستكون اخر مودة في الزواج والازواج والمعيشة ••

ـ نعم •• وفي طريقة الحياة نفسها ••

ـ نعم •• سنعيش حياة عصرنا •• سيكون حبي لك وحدك ولا

ثالث لنا ..

ـ حتى ولو كان الثالث بسببنا .. طبق العسل هذا لا يكفي الا اثنين ..

ـ لا بد ان يكون لنا جدول .. عمل صباحي وعمل مسائي ووقت للقاء في المنزل .. ووقت للقاء في الخارج ووقت نستقبل فيه الضيوف، ووقت نذهب فيه الى طبيب الاسنان. ووقت يلزم كلا منا ألا يرى صاحبه ولا يكلمه حتى ونحن في المنزل ..

ـ نعم نعم .. لم نعد سادة للوقت ولكن الوقت هو السيد . ونحن كزوجين نالا اعلى قسط من التعليم وعرفا اعلى قدر من التجربة يجب ان نرسم وجه حياتنا . هكذا .. انا وأنت اولا .. وبعد ذلك .. يعدلها الله ..

وأصبح البيت بعد ذلك نموذجا للنظام والسعادة . كل شيء بجدول حتى ساعات اللقاء . ولعل اقرب الساعات الى الطبيعة في هذا البيت هي تلك الليالي التي تستقبل فيها زوارها من زملاء وزميلات فيعج البيت بالضحك والثرثرة وتنحل عرى النظام نوعا ما فيصبح الاحساس بالحياة ذا لذة غريبة الطعم مثل لحظة العري في الحمام قبل ان نصب الماء على اجسامنا .

وزادت المدخرات بمرور الزمن وسددت كل (الاقساط) وقل العناء المادي . وأخذت الحياة لونا من الاسترخاء لم يشعر به الزوجان لانهما كانا منغمسين فيه .

وكان قد مر على زواجهما ثلاثة أعوام ولم يقتنعا بعد ان يكون معهما ثالث .. منهما .

كان كل منهما في قرارة نفسه يتمنى لو ضجر الاخر في هذا السباق

الذي فرضاه على نفسيهما • كان هو بانتظار ان تبدأ •• وكانت هـــي كذلك • لكن كثرة المشاغل وساعات اللقاء الصافي ووفرة الرزق جعلتهما ينسيان الاولاد فترة اخرى من الزمن ••

ونظر وهو منزو في ركن عربة التاكسي الى الشارع فـرأى اسرة عائدة ـ لعلها من زيارة ـ وقد ساروا يصخبون • أم وأب وثلاثـــة عليهم مظلة من السعادة • يضحكون بكل قلوبهم وأفواههم ••

وعاودته افكاره ••

ولما اعتلت صحتها ناوشته الوساوس : «ترى ماذا فعل بها البحر الان ؟!» • زاد شحوبها وبدا ضعف جسمها الضئيل ••

«لعلها في الخارج تستطيع ان تعرف سر ذلك» • وخاف عليها وقرر ان يذهبا الى الطبيب •

دخلت وحدها وظل هو في حجرة الانتظار • علل لنفسه ذلك بأنه لا يستطيع ان يقف وراء البرافان وهي تكشف ولا يستطيع ان يرى يدي الطبيب وهو يتحسس جسمها •• ولو انه امين !!

ولم يكن يعرف ما بالداخل •

قال لها الطبيب بعد وهلة :

ـ هل انت آنسة ؟

فضحكت معتزة مستحية وردت وهي تمضغ كلماتها :

ـ بل زوجة !!

ـ حسن •• انك أم •• وضحك في تشكك وحملق فيها • فهذا الخبر اصبح يحزن الغالبية العظمى جدا من الناس فهل هي من الغالبية او مع الاقلية •

ولمست نفسها وخرجت ٠ وقابلها زوجها فاذا هي شاحبة الوجه وفي الطريق تكلما همسا ، لكنهما عندما وصلا الى البيت وتناولا عشاء جيدا وأويا الى المخدع أحسا ان كل شيء يمشي في طريقه الطبيعي خصوصا وان تجربة التخلص من الجنين بادية الخطر على صحتها الضعيفة ٠

★★★

ــ كيف تتركين طفلا عمره عامان وتسافرين الى الخارج ٠

ــ بعثة يا حبيبي ٠٠ التضحية سبيل المجد ٠ هكـــــذا علموني ٠٠ وعلموك ايضا ٠٠

فتأوه وسأل :

ــ لكنها سنتان يا عزيزتي ٠

فأكملت في ابتسام واعتزاز :

ــ وأعود اليك دكتورة ٠٠

ــ لي الشرف ٠ وهذا لن يغير وضعك كزوجة ٠٠ أقصد درجتك في البيت ٠ وكان واجبا ان تتأخر ما دمت تضمرين نية السفر ٠

ــ الذي حدث كان مفاجأة مثل مفاجأة الحمل تماما ٠٠ دكتــــور اخبرني بهذا ٠٠ ودكتور اخبرني بهذا ٠٠ والمسألة مؤلمة في الاول وكل شيء يعتاد ٠

★★★

بدرت من عينه دمعة ٠ كان لا يزال في السيارة يحملق في جمـــــرة

السيجارة في يد السائق • وعندئذ اتاه صوت السواق يسأل :

ـ هل تحب ان نصل عن طريق هذا الشارع او تفضل ان نصل عن طريق هذا الشارع ••

فرد الزوج باهمال :

ـ كله يوصل ••

فاستطرد السائق :

ـ لك حق • المهم السلامة • وأنا الاخر اريد ان «اجرش» العربة بعد هذا المشوار ••

وأحس الزوج ان السائق يستدر كلامه • عنده شيء يثقل صدره ويريد ان يفيض به لأي انسان • ومن الخير ان يكون غريبا • فسأل الزوج السواق :

ـ لماذا ؟ الوقت لا يزال مبكرا •

ـ لا •• اصل الست تعبانة •• «أجرش» بدري من اجل خاطرها •

ـ عندك اولاد ؟

ـ نعم • لكنني اشعر اذا مرضت هي ان اولادي كلهم مرضى •• لماذا؟

وعندئذ هتف الراكب :

ـ وصلنا •• الباب الى اليمين !!

***

وجد مصعد العمارة معطلا • فاستجمع قواه وصعد السلم في هدوء • كل درجة كانت تحدثه عنها • كأنما صباها معا ووضعاها هنا معا : «ماذا

تفعل بنا الساعات» ووقف على البسطة الاولى ليستريح • ومن خلال الابواب ولو ان الوقت متأخر كانت تفوح رائحة (الامن) ••

وعند البسطة الثانية سمع صوت أم تنادي • وعند الثالثة كان السكون شاملا • كانت الاشياء نائمة •• حتى صفائح القمامة استلقت حولها القطط •• لا تموء ؟!

ودق الجرس • جرس باب شقته • فلم يسارع احد بأن يفتح • كانت الخادمة في الداخل •• وعندئذ رجح انها نامت فأخرج من جيبه مفتاحا وفتح • ودخل متسللا • لكنه ما لبث ان سمع هناك ضحكة •• لرجل •• فارتاع ••

لكنه وجد الخادمة في الطريق الى الباب وعلى وجهها طمأنينة سعيده وبادرته قائلة :

ـ اخي هنا • وصل امس بعد سفرك الى الاسكندرية •

وتنهد الرجل • وقابله بالترحاب ثم سأل عن ابنه :

ـ اين (وجدي) يا دادا ••

ـ في الفراش •• نام في الساعة المحددة كالعادة • حسب الجدول•

دخل الاب وألقى نظرة سريعة على الفراش ثم عاد ليقابل الشاب الريفي الذي نزل منذ الامس ضيفا على أخته وقرر ان يعطيه اكثر مما يطلب من اجل البسمة الصافية التي تحلي شفتي (وجدي) ابنه ••

لكنه وجد شيئا لم يكن يتوقعه ••

كل شيء محزوم •• كل شيء يخص هذه الفتاة • انها ستسافر هي الاخرى في «بعثة» لكنها داخلية •• كانت تحلم بها بطريقة أشد شوقا وواقعية من حلم تلك السيدة التي سافرت ، بأبراج الجامعة الاخرى في

الخارج وبرسالة الدكتوراه •• رسالة الزواج في القرية !!

★★★

اراد ان يقول شيئا ولكنه لم يجد • ولما كان لا بد له من النطق فقد نطق • لكنه تمتم وهمهم • وفر الى الداخل حيث يرقد وجدي في فراشه •• مال عليه وقبله •• اي عذاب !

وتذكر امه التي لا تزال في البحر •• في طريقها للحصول على الدكتوراه في «التربية وعلم النفس» ••

نظرة عبر الحقول

بقية الحقول وقد زحفت عليها المساكن يراها ممتـــدة امام عينيه • جرداء خاوية فيها نباتات لا تزال تقاوم على قنوات جف من قاعها الماء •• وجنادب تصرصر تحت النجوم وهو ينظر من نافذة جانبية وظهره الـى الباب كأنما يتسمع بآذان فيه تلك النقلة القلقة المستعجلة التي تعلـن عودة امه •

انه يتذكر حوادث اليوم المنصرم • وعبير شهر «مارس» يأتي اليه صافيا كأنه تخطى الحدائق احيانا وأحيانا اكثر يحمل اليه رائحة مـــاء الغسيل ووقود الافران والمطابخ من هذا الحي الذي يضم طائفة واحدة من العمال •• هم سائقو وكمسارية الترام وهو ابن احدهم • صورة ابيه على الحائط بملابسه الرسمية لا تزال معلقة تفيض بالشباب والامل التقطها لنفسه ثم كبرها وبروزها عقب تسلمه عمله •• وعلقها في حائط كل مسكن سكنوه ••

امه لم تعد حتى الان .

ونقرتها المتعجلة على الباب لم تقع بعد وهو لا يزال تحت وطأة ذكريات يوم ولى . وهو ينظر الى هذه الارض الفضاء بعين عاتبة كأنه يحملها بعض أوزار ما اصابه .

***

كان يصعد سلم المدرسة في هذا اليوم وكل التلاميذ وراءه لانه اول طالب في الطابور بحكم طوله بينهم . ولم يكن في تمام وعيه . يكاد يترنح من النوم لانه لم ينم طوال ليلة امس من صوت بات يزعجه .

وبعد بضع درجات صعدها سمع ثلاثة خلفه مباشرة يضحكون ضحكة لم تستر ما فيها من سخرية . وأنكر اول الامر ان يكون هو هدفا لهذه الضحكة لكنها حين تكررت لوى عنقه ونظر اليهم فضبط في أعينهم ما آكد شكوكه .

وانتهى الامر وتفرقوا في المقاعد وجلس في مكانه المعتاد في الركن الايمن من الفصل .

ولم يدر لماذا استمرأ اليوم جلسته. أحس كأن مقعده مبطن بالقطن.. أحس ان الخشب لين وان ملتقى الحائطين الى جواره يكون ركنا هادئا منقطع النظير . لا يصل اليه شرح ولا نقاش ولا حتى صوت الجرس ان دق .

عاودته هذه الفكرة وهو ينظر من النافذة الجانبية عبر الحقول وفي النسيم شيء من الرطوبة وفي العين شيء من الفتور . واخوته راقدون



التضحية سبيل المجد . هكذا علموني ...

على حشية مفروشة على الارض في مكان مقابـل لصوان الملابس ذي المرايا الخارجية • وعندما حانت منه التفاتة رأى في المرآة خيال الحشية المفروشة وعليها النائمون وقد تضاعف عددهم فخيل اليه انهم ستة فشعر بالخوف وألقى نظرة على صورة ابيه بالبدلة الرسمية ووجهه النشـوان بخمر الشباب •

وكاد يتصور انه ينظر اليهم من اعلى نظرة الراعي الذي لا يغفل •

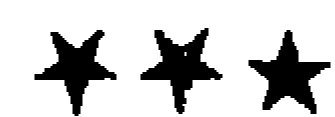
ثم عاد يتسمع الى طرقة الباب المألوفة حين تأتي امه ولما تأخرت عن الميعاد عاد هو الى ما كان فيه •

فهو الان في الحصة الثالثة من يومه المدرسي وقد احاط به الدفء وشاع فيه الخمول • صوت المدرس يأتي اليه متقطعا كأنه من راديو على موجة غير مضبوطة •• او يد تعبث بالمفتاح • لكنه على كل حال ينقله من منطقة الى منطقة • نور وظلام على التعاقب •• وعندما يصير في الظلام يستشعر طمأنينة اكبر من خلالها رأى ليلته الماضية رأى العين • وسمع الصوت الذي حرمه النوم حتى الفجر يتصل وينفصل بصـوت المدرس لكن هذا الصوت تحول فجأة الى صوت جديد أشبه ما يكون ببلونـة تفرقع أفاق عليها من نشوته او من خموله فاذا بها منبعثة من خده والمدرس واقف امامه بعد ان لطمه ليستيقظ وقفة من فرغ من عمل لا يحبه ودوت ضحكات التلاميذ • وتلفت حول نفسه بحركة من يستطلع مكانا لكن يد المدرس قادته برفق الى حيث يجب ان يكون وأخرجه من مقعـــده قائلا له :

ــ اذهب الى دورة المياه وصب على رأسك ماء ثم ارجع •• يـــا كسلان •

وشيعته ضحكات آلمته اشد الايلام ليس فيها طلاقة وصفاء هــذه

الضحكات التي تأتي الان من بيوت الجيران عبر النوافذ الفرحة بالنور الجديد فقد وصلت الكهربة اخيرا الىهذا الحي المنعزل وان لم تدخل حتى الان هذا البيت الذي يسكنه .



وألقى نظرة الى اخوته النائمين وعاد ينظر الى الفضاء . «ماذا تقول هذه الجنادب» ؟!

وسأل نفسه هذا السؤال وجعل يتصور انها شكوى او مناجاة فليس صوت يصدر من حي بدون دافع . وخيل اليه ان نقرات امه القلقة قد رنت على الباب لكن سرعان ما تبين ان هذا وهم ..

ونظر الى مكان الحشية المفروشة على الارض والتي ينظر اليها ابوه من عليائه . من خلال البرواز المذهب الذي يحيط بالصورة . لقد كان منذ شهر في مكان هذه الحشية سرير من النحاس .. باعوه .. عليه ذكريات ابيه رحمه الله . ولم يلبث ان نقله نحاس السرير بلمعانه الى دورة المياه في المدرسة من جديد . ساعة وقف فيها صباح اليوم الماضي بعد ان طرده المدرس من الفصل . لم يدر لماذا رأى شبها عظيما بين احدى الحنفيات النحاسية الصفراء وبين السرير النحاسي الذي كانوا يملكونه شبه من علاقة الاقارب .. رأى ذلا يخيم على معدن السرير كأنه مغترب حين حمله «البياع» ذلا قريب الشبه جدا من اطراق هذه الحنفية التي تتسرب منها نقط كأنها دموع .. كأن اليد التي طرقت هذا السرير قد صنعت هذه الحنفية من سبيكة واحدة وفي موضع السرير فراغ يطل عليه الاب .. وحول الحنفيات كلها سكون جعله واقفا يفكر..

«لماذا انام في الفصل فأصبح ضحكة للتلاميذ ولماذا كانوا يضحكون مني وأنا صاعد السلالم ؟!••» •

وبيديهة الذي يبحث وضع يده على البنطلون مـــن الخلف فأحس بقطع كبير فيه • عندئذ ذهب عجبه • لكنه طاف في مكان اخر •• مـا سبب هذا القطع ؟!

ودخل الى المرحاض حيث استطاع ان يعاين ويرى • فاذا بخرق كبير على مقربة من نهاية فخذه لو رأته امه ـ هي نفسها ـ وهو يصعـــد السلم لضحكت منه مثلما فعل التلاميذ •

***

اخوته الثلاثة ينامون على الحشية وهو واقف • لم تعد امه حتـى الان • وشعر ان الجو قد بدأ يتغير فحمل اليـــه شحنة من الرطوبة • وسكنت الجنادب كأنها استغرقت في النوم فأقفل نافذته وأخذ مجلسه على المنضدة الصغيرة التي تذكره دائما بمناضد الامتحانات وجلس يذاكر في موضع يستطيع فيه ان يرى الحجرة من جميع نواحيها • ظهره الـى الباب والى اليمين الاخوة على الحشية والاب من اعلى ينظر اليهم وعلى مرأى منه في ركن مقابل شماعة تحمل ملابسهم جميعا وبين هذه الملابس تتدلى بنطلونات لأعمار متفاوتة ليس فيها ملابس نسوية سوى قميص ازرق بلا أزهار لأمه التي لم تعد حتى الان •

بين يديه كتاب التاريخ والمصباح على مقربة منه وهناك صورة لصلاح الدين تملأ الصفحة حملق فيها باعجاب برعم متفتح عطشان دائما لصور

البطولات • وحضرته صورة المدرس حين يندمج في دوره في وصف المعارك فيفقد كثيرا من وقاره ويكاد يتواثب وهـم في كراسي الدرس يحركون ارجلهم كأنهم يحنون الى ظهور الخيل •• ايامها •

ولم يلبث ان سبح خياله حتى وصل الى صورة الدم •• فعض شفته وأفاق •• نظر كسيرا خلوا من الحماسة الى صورة ابيه في بروازهـــا المذهب •• وهز كتفه •• كأنه يقول في نفسه «وهل نجا هذا الرجل من المصير الدامي ؟! فقد كان مجرد قاطع تذاكر في ترام القاهرة ••» •

وتذكر تاريخ والده القصير • حكى لهم ان امه «جدتهم» بحث من الزغاريد يوم أعفي من الخدمة العسكرية ايام الملك لا لانه كان راعيـــا لأمه الارملة مثلا او لسبب اخر •• لا بل لانه كان قصيرا •• وبعدهـــا بقليل لبس البدلة الرسمية التي يرتديها الان في الصورة امام عينيه • ثم تزوج •• وبعد الطفل الرابع لحقه مصيره الدامي اجتاحه حيوان جامح كان يجر احدى العربات في الشارع والاب على سلم الترام يزاول عمله فسقط بين العربتين •

«لماذا لم تعد امي حتى الان ؟!» •

ونظر بعينين دامعتين الى الصورة المعلقة •• ثم الى بنطلونه المقطوع والى قميص امه المتدلى في ذبول مجاورا لاصغر بنطلون كأنه يحميه •

«ستجد امي مشكلة هذا البنطلون عندما تعود» •

وأطرق شاعرا بالخجل • ونظر الى صورة ابيه وشعر بنوع جديـــد من الخجل •• حقيقة انه يشعر بأنه لا احد يختار موضع ميلاده ولا اسمه ولا لون أبويه •• ولا احد ايضا يختار نوع الموت في الغالب •• لكنه يشعر ايضا بالفرق العظيم بين جثة رجل يصبغها بالدم جموح حيوان وبين

جثة رجل يموت .. هكذا .. بطلا .

وعاد ينظر الى صورة صلاح الدين ، ويتخيل ان أباه مات تحت رايته .. ولم يكن هنا رابط بين الامنيتين الا ان أباه مات مقتولا . وكانت امه تخجل من سرد تفاصيل الواقعة .

ثم أطرق على المنضدة . فرش ذراعيه عليها ووضع جبينه . عاودته في هذه اللحظة تفاصيل المشاعر التي غمرته في الفصل وقت الصباح .. الحذر والسكون والصوت المتقطع .. لكنه ما لبث ان رفع رأسه . حانت منه التفاتة الى اخوته الراقدين . على وجوههم احلام في غموض الليالي . ونظرة ابيهم تجتاز من فوقهم الى حيث مرايا الصوان فتقع هناك لتسبح في فضاء اوسع . أمهم تنام الى جوارهم بعد ان تعود من العمل . وكم رأى هو هذا المنظر في ليالي الأرق .. ذلك الذي يسببه له حتى الان صوت متعب يخرز أعصابه ويمزقها ويعذبه ويسبب له الخسائر ونظرة ابيه في الصورة تسبح في فضاء الغرفة .. وهو يتنهد .

ثم اخذ يتصفح كتاب التاريخ .. فراعه ان شيئا ما قد وقع فيه . هناك صفحة وخريطة لحقهما التلف .. وذهل . ونظر الى بنطلونه المقطوع المتدلي في انتظار الاصلاح على مقربة من قميص امه . تلك التي لم تعد حتى الساعة .

وشدته من أجوائه المختلفة نقرات امه على الباب .. ففتح . دخلت وعلى وجهها علامات تعب لا يخفي حبورا . وفي يدها لفة كبيرة لم تفتحها قبل ان تهيب بالنائمين ان يستيقظوا .

ـ «ماذا يا ماما ؟!»

ـ تأخرت . لكن .. هذه اشياء تكفر عن غيابي .. ساعدني في ايقاظ اخوتك .

وفعل • وفتحت الأم اللفة التي حملتها • كان فيها جاتو وبسكويت• اشياء تخلفت من حفل أقيم في الملجأ الذي تعمل فيه •• قسم على من هناك بالتساوي •• ومن اجل هذا الحفل تأخرت وعادت تملؤها الفرحة•

كان الصغار يأكلون في سعادة وفي عيونهم نوم • اما هو فكان في انتظار اللحظة التي تقنع نفسه فيها بحمل نبأ البنطلون اليها • فمحال ان يذهب به غدا الى المدرسة هكذا • وكان مترددا كأنما عز عليه ان يفسد عليها وهلات سعادتها الليلة وهي تنظر الى ابنائها الفرحين بالهدية • لكنه بعد ان انتهى العشاء وناموا •• قال لها قبل ان تستغرق في نومهـــا والظلام مخيم على الغرفة :

«بنطلوني قد قرضه الفأر الذي قرض أعصابي ولن استطيع الذهاب به الى المدرسة يا ماما !!» •

همهمت في الظلام بمنطق من لا يتقبل الهزائم :

«في الصباح سأدبر الامر» •

سكت قليلا وكأنه ظل يعاني ولم يخفف من حدة ما به ما سبق ان قاله ولا ما قالته امه فعاد يهمس :

ـ «وكتاب التاريخ يا ماما ؟» •

شهقت في خوف :

ـ وماذا اصاب كتاب التاريخ يا بني ؟

ـ أتلفه الفأر •• قرض خريطة عليها مواقع عزيزة غالية عندنا • يتكلم منها مدرسنا الفلسطيني وعيناه مغرورقتان بالدموع • فتحت الكتـاب الليلة فحزنت حين رأيت ما فعله الفأر بهذه الاماكن •

قالت الأم بعد صمت طويل تسمع فيه نجوى النفس :

ـ اذن لم يعد الامر مقصورا على الطعام والملابس .

ـ لو اشتريت المصيدة كما وعدت ما وصل الأمر الى هذا الحد .

ـ ربما كان كلامك في محله لكنني اقدم شيئا عن شيء .

ـ وأنا في معظم الليالي لا انام من صوت فرضه .. انه سيأكل خشب الدولاب يا ماما ؟ لا يجب ان ننتظر .

ـ هل تريد الحق ؟.. عليك ان تتربص له فهذا دورك .. يكفيني انني حللت محل ابيك في كسب عيشنا . وعليك انت ان تدافع عن ثيابك وعن كتبك وفي الصباح تتدبر الامر من جديد .

علينا ان نستريح .. لنفكر .

لكن الغلام لم ينم طول الليل .

حلم الأب

حين استدعاه مدير الفرقة نهض مسرعا واتجه نحو مكتبه • وفـي الدهليز المستطيل الذي تحف بجانبيه نباتات ظلية التفت حول اعمـدة عربية الطراز ــ اخذ هذا الممثل الشاب يفكر فيما عسى ان يقال له • وخمن مقدما ما يمكن ان يقال •• «كلمة ثناء وتشجيع حتما» وربما كلمات يفوح عبيرها مع رائحة السيجار المعطر الذي يحترق باستمرار فـي حجرة المدير •

وفي السقف •• سقف المر •• مصابيح على هيئة نجوم تعلقت بها عينا الشاب لحظة ثم هبطت الى الارض حيث النباتات المتسلقة تلتف حول الاعمدة • وأخذ طريقه الى هناك لا يسمع خطواته فقـد كان يدوس بحذائه المخروق على مشاية من السجاد الداكن •

حجرة المدير كعهده بها واسعة انيقة • وأمام مكتبه مباشرة كرسيان مريحان لجلوس من يجب ان يكون على مقربة منه • ونفذت الى أنفه

كالعادة رائحة السيجار كيد معطرة كتمت أنفاسه لبرهة ثم أفاق • والمدير وراء المكتب بملامحه المنهوكة بابتسامته المنسية •

وجلس الشاب على احد الكراسي القريبة من المكتب في امتثال مؤمن فقد كان يعتقد انه من العبث ان تطابق اعمال الناس افكار الفرد • فهو (واحد) يعامل مجموعا كبيرا وهو كواحد لا بد انه يحمل نظرة محددة نسجها الماضي والحاضر ولمسها المستقبل • اما هم كمجموع•• الناس•• فلا يمكن ان يكونوا عدة آلاف من الاجسام تحمل رأساً واحدا يفكر مثلما يفكر (الفرد) لذلك فلم يعنه كثيرا ان يبخس حقا • وكانت كلمة الثناء ترضيه ولو انه يعلم ان هذا الثناء وسيلة • او خديعة • او تعويض• اما اذا كان الثناء مطلوبا لذاته فان الناس لا شك يبخلون به •• الا في حفلات للتأبين ••

دارت هذه الافكار في رأسه وعيناه مثبتتان على دبوس مذهب في رباط العنق الذي يلبسه المدير • والدبوس على هيئة تمساح •• ولم يلبث المدير ان اعتدل في جلسته ليقول للشاب :

ـ اسمع يا بني •• عندي خبر سار لك ••

خفق قلب الشاب لانه يطالب بعلاوة منذ سنة • ووقع بينه وبين المدير نقاش لم يكن خاليا من المرارة • فقد لفت المدير نظره الى قناعة الفنان والى انها احدى السمات الخلقية التي تستوجب التقدم وتكفل المستقبل • والى ان «الالم هو النبع السحري الذي يروي نفوس الفنانين» وكان عليه يومئذ ان يقتنع لان الاقتناع قد لا يكون تقبلا عقليا فقط وانما قد يكون ايضا نوعا من الامتثال يقبله العقل بعد فترة •• وها هو ذا اليوم يستمع اليه •

ـ عندي لك خبر سار •

لم يرد عليه بل فرك كفا بكف وابتسم في رضا • واستشعر الدفء من كل جانب•• من مدافىء الحجرة وراحة طارئة احلى من المدافىء • وكأنما لذ للمدير ان ينظر طويلا الى هذا الذي صفق له الجمهور وهو الان بين مخالبه المعنوية ينفخ دخانه على مقربة منه فيرسب حول وجه الشاب كبقية ضباب •

وما لبث المدير ان غير وضعه ومال الى الامام ليقول له :

ـ خذ هذا الخطاب واقرأه •

أمسك الشاب بالخطاب ففاحت منه رائحة البؤس • لانه كان تقريرا لواقع قديم منتظر بين شهر وشهر • فهذا زميله في الفرقة قد لزم المستشفى • ولن يكون الخبر السار الا خبر (ميراثه) لكن •• ما الذي سيرثه عنه يا ترى ؟!•• انه لا يملك شيئا يوصى به لاحد • لا يملك الا موهبة يصفق لها الناس وهذه الموهبة لا تورث ولا يوصى بها • وحتى اذا بيعت فانها تفتح القلوب ولا تفتح الجيوب •

ونطق الشاب في حسرة :

ـ مؤسف جدا يا سيدي ان يتوقف هذا الصديق عن العمل •

وهز رأسه ونظر اليه نظرة الفنان الذي يشمل قلبه كل الناس • وكأنه يقول له : «وهل هذا هو الخبر السار» •

غير ان هذا لم يغب عن فطنة المدير وبدا على وجهه المنهوك ذكاء وخبرة وسارع يقول له :

ـ غدا ان شاء الله سنبدأ في اجراء (بروفات) المسرحية الجديدة وستقوم انت بالدور الذي كان منتظرا ان يقوم به صاحبك المريض وهو دور يعتبر بعد الاول • وبناء على ذلك فأنت ستقف طويلا امام الجمهور• وهكذا ستجد فرصة اخرى للتقدم نحو مرتبة النجوم • وكلنا نعرف انك

وصديقك هذا من مزاج واحد وهذا هو ما أكده (المخرج) • لذلك فهو يرى ـ دائما ـ ان واحدا منكما يغني عن الاخر (وأردف في ضحكة) وكأن القدر اصدر حكما مكررا يوم خلقتما • فقد كان واحد منكما كافيا •• (ثم ضحك مرحا) ••

كان الشاب يسمع وهو مطرق •• ويعجب مما يسمع • لكن •• ليس هنا مجال للنقاش • هنا مجال للعمل •• وقبل ان يقول كلمة كانت على طرف لسانه اعلن المدير انتهاء المناقشة •• وكانت معروفة عند أفراد الفرقة وهي كلمة «متشكر» يقولها خطفا ثم يمسك بعدها بسماعة التليفون الخاص •

***

احد رؤساء القبائل في الصحراء حلم ذات ليلة ان بيته الذي يسكنه اصبح واقعا في وسط حديقة غناء وان الماء يجري في جداولها بغزارة وانه أحس بالظمأ في منامه فسعى نحو احد هذه الجداول ليشرب لكنه سقط ميتا وهو عند حافة الجدول •

ولما قص رؤياه على ابنه الوحيد الذي يحبه ويعتبره اخا وأبا لم يهتم كثيرا بالامر • وكانا ساعتئذ على العشاء • وناما •• وأصبح الصباح فاذا بالابن يستيقظ على صرخة امه التي تحمل اليه خبر وفاة ابيه •

وتجتمع القبائل للاحتفال بدفن هذا الرجل الطيب الذي كان بينهم بمثابة قلب عاقل وسط هذه الحياة القاسية •• تلك التي تختم فيها ظروفها على كثير من الناس ان يكونوا اشرارا بقدر ما هم بسطاء • وبعد

انتهاء المراسيم • بدأ الابن يشعر بحزن غريب ألجأه الى الوحدة وكاد امل الناس فيه ان يخيب وهو الذي كان املهم الثاني بعد موت الاب • لكن الابن في كل ليلة كان يربط بين الموت والحلم • فلماذا مات ابوه في الليلة الثانية ؟ فهل تحقق شطر من الحلم يستوجب تحقق الشطــر الاخــر ؟!•

وهكذا بدأ يسأل نفسه وهو لائذ بالوحدة • هل تقع دارهم هذه وسط حديقة غناء •• غير انها لم توجد بعد في عالم الحقيقة وان كانت موجودة بالفعل في عالم الامكان ؟!

وبمرور الايام بدأ يرى ما لا يراه الناس • وبحكم انه كان يرى أباه في المنام معظم الليالي فانه صار يرى حلمه نفسه •• حلم ابيه • فأصبحت هذه الرؤيا احدى سمات احلام الابن حين يقابل أباه في المنام • شيء ملازم لشخص الاب كأنه جلبابه • ثم استقل الحلم عن صاحبه وأصبح له شخصية منفردة فلم يعد الابن يرى والده مع حلمه بل امسى يرى الحلم بدون والده وبذلك اصبح حلمه الشخصي بعد حين • ولما ألح هـــذا الخاطر عليه بدأ يعمل شيئا عجب له الناس اشد العجب • بدأ يحفـــر ليبحث عن الماء والناس يعجبون لما يفعل» •

***

من بين أدوار هذه القصة اخذ الممثل الشاب دورا جديدا ••

وبدت امام الجمهور على المسرح صحراء بلا جنة ممدودة في اتساع شاسع • وأمام البيوت ــ وعلى الافق ــ أكوام من التراب تدل على ان في المكان حفرا وبحثا وتنقيبا •

وعندما ظهر الممثل الشاب ليؤدي دور من يريد ان يحقق حلم ابيه راعه مظهر المسرح • وكان عليه ان يقف برهة وحيدا في المكان ليلتفت باحثا عن صديقه (بسام) الذي يعتبره عضدا له في هذه المهمة التي يلومه عليها الناس •

وفي هذه اللحظة رأى الصمت يخيم على المشهد المصنوع بمهارة على المسرح ورأى الصمت جاثما تماما على الشرفات والمقاعد ولا تفوح ـ كما هي العادة ـ رائحة عطور ولا سجاير • وفي هذه الليلة الاولى للعرض خيل اليه وهو واقف يتلفت حتى يظهر صديقه انه يشم رائحة تراب حـــادة كالتي تفوح من صفحات كتاب طـــــوي عدة سنين حتى كاد يعطس فتماسك •• حتى •• لا يضحك الجمهور•• وكأنما رائحة التراب قد انتشرت من الحفر في الديكور ومن ارض المسرح الذي خيل اليه انه لم يكنس منذ اشهر •

وكان الملقن تحت (الكمبوشة) يبدو مثقلا بالنوم • فأحس الممثـــل الشاب انه واقف على حافة هاوية • ونظر الى الحفر المصنوعة على أفق المسرح والى السماء التي تسقط بعيدا عن الرمال راسمة دائرة الافق فشعر انه في متاهة •

وعند ذلك رأى الشاب شبها عجيبا بين جو المسرح الحقيقي وبين الدور الذي سيقوم به ممثلا له • وما دام مقتنعا بدوره فعليه اذن ان يعزل نفسه عن كل مؤثر خارجي يهدم تصميمه ، عليه اذن ان يتخيل •• فعمله كله قائم على الخيال • عليه ان يزج بنفسه من جديد فـــي عالم الطفولة او ان يقف على ابواب عالم المجانين فيرى المسرح مليئا بالناس• هل يعجز خياله عن ملء هذه الكراسي بالجالسين وان يستشعر رائحـــة العطور والسجاير ما دام هذا كفيلا بانجاح دوره !؟

وبكل يقين ـ كالشخصية التي يمثلها ـ نادى بصوت عال فوفـد اليه صديقه الذي دخل مهرولا كأنه يحمل اليه خبرا هاما وقال :

ـ الناس غير مقتنعين بعملك هذا . انك تبدد جهدك ولا يراك احد..

وعندئذ وقعت عين الممثل الثاني ـ الذي قال هذا ـ على الشرفات الخالية فكاد يتهاوى وشعر بيأس من ينادي فيجاوبه الصدى وعلى غير انتظار . لكنه ما لبث ان نظر الى الممثل الاول فرآه منتفشا كالديـك المزهو بريشه ، يخطو على المسرح بيقين وينظر الى اعمال الحفر . ويشير اليها باعتزاز وهو يمسح عرقه باليد الاخرى وأخذ يهتف :

ـ لكن علينا ان نؤدي دورنا ولو لم يرنا الناس .. هناك احلام لا تكذب . وحلم ابي من بينها . وهذه الحفر التي تراها هي اشبه بسفينة نوح يسخر منها الجاهلون ومن لا يعرفون الحقيقة . ومن اجل حفـظ الجنس البشري بنيت السفينة . ولو نجحت السخريـــة لهلك الجنس البشري وخربت الارض .

ـ لكن تشجيع الناس يا صديقي بند من بنود العمل ذاتـه وليس شيئا خارجا عنه .. و .. ها انت ذا ترى ..

وأشار بيده الى الحفر . وانتقلت يده فجأة الى الشرفات الخالية . لكنه رأى الممثل الاول واقعا تماما تحت سحر الدور الذي يقوم به وسمعه يهتف وهو يخطو على المسرح في خيلاء من تراه ملايين العيون وتصفق له ملايين الاكف .

ـ انا لا اريد ان اكون ساحرا حصيلة اعمالي اعجاب أبله . ولكني اريد ان اكون عاملا حصيلة اعمالي بناء ينسى بانيه ويعيش المبني جيـلا بعد جيل . والعد يبدأ (بواحد) والاعمال الجادة يقتنع بها القلة ثـــم يتكاثرون وقد لا يكونون من جيل واحد . وبعض الاحلام وحي . وحلم ابي بعض هذه الاحلام .



ثم استقل الحلم عن صاحبه وأصبح له شخصية منفردة،

وعند ذلك خيل اليه انه يسمع تصفيقا فنظر الى الشرفات والتمعت في عينيه الفرحة • ورأى صديقه بريق عينيه فسرت العدوى اليه مثلما تسري عدوى الغناء من الصوت العظيم الى كل السامعين • وانفصل بذلك المثلان عن عالمهما الاصلي وبدءا يتحركان كشخوص الاساطير • وأفاق الملقن من خموله فأخذ يرمي بالكلمات في حماسة العباد يرتلـــون دعاء • وبدأ عالمهم يموج ليس بسحر الفن وحده بل بسحر العقيدة •• عقيدة ان يؤمن كل بدوره فليس هناك فرق بين المسرح الصغير في قرية والمسرح الكبير في مدينة والمسرح الاعظم الذي يشملّ الارض كلها •

وبدت الصحراء على المسرح وكأنما تحولت الى جنة • اذ استطاع المثلان اللذان اعتنقا دورهما ان يريا الحلم وقد تحقق •

وكان اخر ما هتف به الممثل الاول ان قال بحماس وبصوت مرتفع :
ـ انظر •• انظر يا صديقي •• هذا هو الماء قد تفجر من الحفر •• ما اروع هذا •• انه يبدو في غزارة مياه الانهار ••. انظر •• لم يبق لنا الا ان نزرع •

وعندئذ وضع الممثل كفيه على أذنيه لانه خيل اليه ان التصفيق يدوي كأزيز قريب من الاذنين •

***

ولم يدر بعد ذلك بما حدث • فقد الفى نفسه ممددا على أريكة في حجرة المدير • وأفاق على رائحة الدخان المعطر • وعندئذ قال له الرجل بوجه بشوش :
ـ كنت في خلفية المسرح ورأيت كل شيء • رأيت انك مقتنـــع

بدورك على المسرح وأنت تمثل دور شاب مقتنع بدوره في الحياة فنجحت بصرف النظر عن كل شيء • وأنا واثق ان العدد القليل الذي شاهدك الليلة سيكون (شاهدا) عادلا يسمع اليه الجمهور • وغدا مساء ستغص الشرفات بالناس ، وهذه هي تجربتي من قديم •• وغدا ترى ايها الشاب الرائع ••

ستعود الابتسامة

الموسم موسم عواصف .. ومع كل فالطبيعة لا تعترف بالاستقرار.. فكان عليه ان يركب القارب هو وأخوه وينزلا الى البحر .. اخوه اصغر منه ويريد ان يتزوج عاجلا . وكل هموم الاسرة في هذه الفترة هي تدبير اكبر مبلغ من المال لاجل حياة مستقرة في بيت مستقل لهذا الشقيـــق الصغير ..

هما يعلمان انهما يبذلان جهدا اكثر من المألوف . لكن جهدهما كان موضع اعجاب الصيادين جميعا حتى بدا القارب الذي ينزلان به الــى البحر وكأنه قد اكتسى ملامح انسان . شجاع .. مفكر .. لا تحكمه الدقة والشراع والمجاذيف بل يحكمة شيء اعلى من كل هذا . وهكذا بدا القارب لعيون الصيادين لكثرة ما يعود به من خيرات والشقيقان عليــه متعبان لكن ابتسامة ما تتلاعب تحت الشوارب المهملة يكمــن فيها سر

سعادة لا يعرفها الا المتعبون .

***

البحر بادي السكينة في هذه اللحظة التي يدلف القارب فيها الى الماء . بلونه الازرق في لون السماء والماء معا . طلي حديثا بالزيت وانعكست عليه أشعة الشمس المائلة نحو الغروب فبدا لعين الشقيق الاصغر وكأنه (عريس) مثله يتهادى على الصفحة الهادئة وخيل اليه ايضا ــ الى الشقيق الصغير ــ ان هذا البحر يحمل اليوم قلبا مثل قلب الانسان يعرف عن طريق لغة سحرية ما تنوء به قلوب الآخرين . وعن طريق قلبه هذا سيعطي الجائع سمكا ويعطي العريس مهرا وربما ــ بطريقة قد يعرفها الصياد ــ يعطي العطشان ماء !؟

وهكذا دلف الشقيقان نحو الماء . وتوغل بهما القارب . وبدأت الشباك تعمل . وأصوات الصيادين من حولهما تتناغى في كل اتجاه .. اغنية او تحية ترسل بالايدي او الصفير بالفم . والهواء يحمل مع رائحة التحيات رائحة البحر والاعشاب ثم تلك الرائحة التقليدية التي تفوح من الشباك والقوارب والتي ألفتها أنوف الصيادين حتى كادت لا تشعر بها .

وكان سيرهما دائما الى الامام . وكانت الشباك تخرج من الماء في كل مرة بمزيد من الرزق . وأخذ الشقيق الاصغر يغني . اغنية حب نابعة من موطنهما الاصلي عرف سرها وروحها وجربها الشقيق الاكبر فابتسم له وشاركه غناءه بصوت أجش يوحي بالجد والتعب .



ولم يفطن الشقيقان الى ما حولهما .. حتى غروب الشمس لـــم يفطنا اليه .. وكان هناك قمر صغير يموه بنوره صفحة البحر بدا لهمـا اكثر ايناسا من أضواء الشاطئ لانها بالنسبة لهما لم تعد موجودة .. لقد أوغلا في البحر كثيرا .. ولم يشعرا بأن الصيادين جميعا قد حاولوا ان يكونوا على مقربة من الشاطئ فانهم ما داموا يرون نوره لا يخافون المخاطر ..

قال الشقيق الاصغر لاخيه فجأة :

ـ ألم تلاحظ شيئا ؟

فرد اخوه باطمئنان نسبي :

ـ ولكن ماذا نفعل .. ها نحن الان في طريقنا الى الشاطئ .. لقد لاحظت فعلا ان الموج بدأ يرتفع ..

ـ موسم عواصف ..

فقال الاكبر :

ـ الطبيعة لا تعرف الهدوء . والغرق قد يحدث بلا عاصفة.

ثم بدا له ان يسلي شقيقه وهو ايضا عمل لا يخلو من تسلية النفس فصار يقول له :

ـ كنت بين فترة وأخرى اقول في نفسي ما دام الرزق مواتيـــا فلنعمل فأخي لا يزال محتاجا الى اشياء كثيرة .. حذاء جديد وراديـو تتمتعان به اثناء السهرة لانك لن تأخذ معك راديو العائلة والا احتجت أمنا التي لا تنام الا على صوته وهو خافت .. وأشياء اخرى كهدايـــا للعروسة .. آه .. انوار الشاطئ قد بدت .. ألا تحس بالاطمئنان ..

ولم يرد الاصغر . كان القلق مستوليا عليه وكان محقا في ذلك .

فالموج امسى عاتيا والريح شديدة الهبوب . وكان عليهما ان يطويا الشراع والا انقلب القارب . وفعلا ذلك بسرعة . كانا يشعران انهما في طريق كله مرتفعات ومنخفضات . وبدأ اتجاههما الى الشاطىء يضطرب بفعل تلاطم الموج وتحول الريح لكن الاخ الاكبر اخذ يخلق في هذه المخاطر جوا من المحتمل ان ينسي شقيقه حقيقة الازمة فاستطرد في هدوء لكن بصوت مرتفع حتى يسمع اخوه :

ـ وكان ضروريا ان تهدي الى العروسة زجاجة عطر . ذلك يعجب الفتيات .. ذلك ما أخرنا حتى الان .. وستأخذ هذه الزجاجة لتريها لكل صديقاتها .. هه .. لكنها لن تفتحها .. ستشمها من الخارج فقط حتى تفتحها ليلة العرس ..

ـ عم تتكلم يا اخي ؟.. ان كثيرا من السمك سقط في الماء .

رد الاكبر بفلسفة من عاشر البحر :

ـ نعم نعم . انني ارى . لكن المال كما تقول الامثال مثل الاظافر تقص وتطول ثم تقص وتطول .. ليس مهما .. المهم ان .. آ ..

***

لم يسمع احدهما صوت الاخر . لان صوت الريح كان شديد الهبوب ولانهما كانا في الماء .. لقد انقلب القارب . كان كل منهما يفكر وحده . كيف يوصل افكاره الى اخيه . الليل والريح ضد اي نداء لكن كان في ذهن كل منهما فكرة مهمة هي .. ألا يدعا القارب يغيب عن عيونهما . ومن حسن الحظ ان معظم اتجاهه كان نحو الشاطىء فان هبوب الريح كان في هذا الاتجاه . ولذلك فلم يكن توغله في البحر الا

بفعل موجة او عدة موجات كانت تعوق سيره الى الشاطىء •

وخطر للاخ الاكبر خاطر بسيط لكنه كان على غاية مـن الاهمية • خطر له ان يحاول لمس القارب بأي طريقة ولو كلفه ذلك حياته لانه من الجائز جدا ان تدفع به موجة الى ناحيته فيصيب جداره المقلوب رأس الصياد • لكن ذلك لم يعوقه عن تنفيذ الفكرة • وحاول•• وتحسس المكان الذي يقصده من القارب فلم يجد ما يريد • وعندئذ صرخ بأعلى صوته ونادى اخاه • كان عليه ان يكون قريبا منه فان الفكرة لا يقدر واحد بمفرده على تنفيذها • وسبح اخوه نحو القارب • كان شبابـه معوانا له • وكان يعلم تماما ان حياته وحياة اخيه معلقة بالارتبـاط بالقارب : لانه الان هو السبيل الوحيد الذي يوصلهما الى الشاطـىء فالسباحة وحدها ليست مضمونة العواقب فقد يصيب احدهما التعب •

كانا يدوران حوله كأنه مركز فلك • تربطهما به جاذبية لم يستشعرا مثلها في يوم من الايام • حتى في اول هذه الرحلة ساعة كان يتهادى تحت شمس اخر النهار بلونه السماوي • كان تحت الظلام والخطر اكثر جلالا وأعظم قيمة وأعلى مكانة •

وهتف الشقيق الاكبر مناديا اخاه عندما رآه يستوي راكبا في فرح شديد على هيكل القارب ــ هتف قائلا :

ــ ابحث عن طرف اي حبل فذلك ضروري لنجاتنا •

ورد الاصغر :

ــ لم اجد • ابحث انت بدورك •

وتقدم مرة اخرى وصار يتحسس بكل ما يقدر عليه وأخيرا صرخ في فرح :

ــ هذا طرف حبل ••

رد شقيقه :

ــ عظيم .. سأنزل ونقود القارب معا بواسطته الى الشاطىء . فاني ارى النور يقترب ..

ــ لا .. ابق حيث انت . استرح قليلا حتى اذا تعبت انا اخذت انت دورك في الماء حين اكون انا على ظهر القارب.

وسبح الاكبر . لم يكن يدري الا انه في حلم . عيناه متعلقتان بأنوار الشاطىء التي تبدو وكأنها في الجنة . ولم يكن يحس بحقيقة المشقة لان العمل كان ضروريا . وبعد مدة ناداه اخوه :

ــ هل آتي لآخذ دوري ؟

ــ تعال ..

وأخذ دوره . أمسك بالحبل الذي كان في يد اخيه . لكن اخاه لم يصعد الى ظهر القارب . بل بقي في الماء بجانب الآخر دون ان يبذل مجهودا .

وحدثت معونة لم تكن في الحساب . فقد اشتد تدافع الموج الى الشاطىء فكان ذلك معوانا لهما .. ولم تكن الامواج التي وقفت ضدهما أقل معونة لهما عندما كانت في اتجاه رحلتهما .

ولم يصدقا ما حدث عندما تم سحب القارب الى الشاطىء . كان الشاطىء هادئا . نظر كل منهما الى الاخر دون ان يتكلما ثم جلسا ليستريحا. وبعد قليل فحصا القارب فوجدا التلف قليلا .. همهم احدهما:

ــ ممكن ان يصلح كل هذا ..

وساد صمت . لكن .. عاد صوت الصغير يقول ، وبشبه مرح غامض :

ــ انك لم تتكلم عن السمك ..

قال الاكبر :

ـ قلت لك.. ان المال .. مثل الاظافر .. كلما قصت عادت فطالت.. غدا .. او بعد غد سنعود معا بشباك جديدة .. وننزل البحر .. ونغني. وسنعمل جهدنا على ان نشتري للعروسة زجاجتين من العطر .. بدل زجاجة واحدة . اريد منك فقط ان تبتسم .

اشواق

كان الرجل يجهش بالبكاء بطريقة لا تتناسب مع مظهره القوي ..
الدموع شيء غير مألوف بالنسبة لوجهه القاسي . وفي يده رسالة
وصورة كان مأمور السجن قد قدمهما اليه لتوه . بعد ان اطلع عليهما
كما تنص اللوائح والقوانين ..

وأخذ فك الرجل يرتعد وهو يقبل صورة غلام في الرابعة عشرة من
العمر ، سمح المحيا باسم الثغر ، كأن شيئا من هموم الدنيا لم يطف
بقلبه . وكأن والده ليس نزيل السجن .

وكان يبثه في الرسالة شوقا ويطمئنه كما هي العادة المتبعة . ويخبره
انه نال الاعدادية بتفوق ، وانه سيدخل المدارس الثانوية باذن الله ،
وعلى الصورة من الخلف اهداء لوالده يسيل حبا ورقة .

وتنقل خيال المأمور الى الرجل في نفس الليلة لكي يسهر معه ويتصور

اي سرور وحنين يحيطان بقلب هذا الاب • ثم تذكر شخصيته • انه يعرفه تماما • مشهور بالقسوة بين زملائه • لكنه اذا ما انعزل عنهم بدا كثير الهموم ، وربما بكى في صمت لكن سلوكه العام يغلب عليه الطاعة •

وأخذ المأمور يتصور ماذا كان يمكن ان يحدث لو انه في داره ويشارك ابنه فرحته ، لكنه عاد فمال الى ان الفرح والحزن يتضاعف اذا ما كان الناس بعيدين عن أحبابهم•

ومنذ ذلك التاريخ لم تأت للرجل رسائل • لكنه عاد اكثر سهوما ووجوما بعد عدة ليال • كأنما استنفدت الفرحة كل ما عنده من طاقة• فبدا عصبيا اكثر من المألوف قبل ورود هذه الرسالة •• كأنها ايقظت فيه شيئا كان نائما • كذكرى حب جريح يعانيه شاب في مقتبل العمر •

على انه كان قد جاوز الاربعين بكثير• ولم يكن يبدو عليه روائح الأبوة لانَّ تكوينه كان يتنافى مع الحنان • ففي فكه العريض ونظرة عينيه الشاردة ولونهما الذي يذكر بلون الحديد •• قسوة •• وكانت النظرة مثل طرف الخنجر • فضلا عن صوته الأجش ولونه الكابي •

***

كان قد تلقى الرسالة الاولى في اوائل صيف • وانقضى الصيف••

وفي اوائل شهر أكتوبر حمل البريد رسالة اخرى الى الرجل •• وفتحها المأمور كالعادة ••

رأى فيها صورة شاب وسيم الطلعة لا يمكن ان يتجاوز الثانية

والعشرين • على وجهه آيات النجابة • وعلى ظهر الصورة اهداء الى والده الحبيب • ومع الصورة رسالة كتبت بخط انيق دقيق جدا يحرص كاتبها على ألا يترك في الورقة مكانا ابيض كأنه يريد ان يطيل الحديث مع ابيه • ويقول فيها ما معناه : انه تخرج في كلية الحقوق بدرجة جيد جدا • وانه والحمد لله عين وكيلا للنائب العام في احدى المحافظات • وانه سعيد بهذا التناقض الذي وقع في حياتهم لانه سيدافع عن الحق• فهو يعتقد على الرغم من كل شيء انه ابن رجل شريف ، لأن الذي وقع لأبيه لم يكن الا دسيسة راح ضحيتها •

وأخذ المأمور يفكر في هذا الموقف المتناقض • فهو يعلم ان جريمة هذا الرجل اختلاس لاموال الدولة •• ولا يزال هذا الرجل حتى اليوم يقول كلما حانت فرصة للقول : «لو كنت شاركت اللصوص لعشت خارج هذا السجن ولكني لمحافظتي على شرفي دخلت هنا لصا •• وهم في الخارج» •

لكن المأمور سرح طويلا •• ولم يشأ ان يناقش الحادثة من ناحية امكان وقوعها او عدم امكانه • لكنه اشتهى جدا ان يرى صورة الرجل جيدا وهو يقرأ الخطاب •

واستدعاه • وقدم اليه الخطاب والصورة • فما كان منه الا انه اخذ يلثم الصورة ويهتف باسم ابنه ويبكي بحنان يتناقض مع وجهه القاسي • وكانت الدموع في هذه المرة اشد من الدموع التي سبقت • وكان يقول من خلال صوته الباكي : «وأعيش حتى ارى هذا في الخارج يا رب؟!» •

وأخذ اوراقه وانصرف ••

ودلت المعلومات على انه كثير الانطواء والبكاء اما اذا اتصل بمن حوله فهو كثير الشجار • واشتدت شراسته • حتى قال المأمور على

سبيل المزاح بينه وبين نفسه : «ربما كان المنصب الذي يشغله ابنه الان هو السبب في ذلك» •

***

ومرت فترة من الوقت • حضر الى مكتب المأمور رجل يشكو من صاحب هذه الخطابات • فعادت الى ذهن الرجل ذكريات دموعه ومنظره القاسي المهزوم • فصرف الشاكي واستدعى المشكو في حقه •

مثل امام المأمور وهو بادي الحزن وكان في ظنه انه سيسأله عن سبب الخلاف بينه وبين جاره • لكن المأمور قال له :

ـ اسمع يا عم سيد • لك عندي رسالة جاءت بالبريد اليوم فيها اخبار سارة لك •• لكنني •• لن اسلمها لك حتى تريني صورة ابنائك ورسائلهم التي تسلمتها مني منذ مدة•

وحملق الرجل في المأمور وحك ذقنه وهمس «جواب ؟!» •

ـ أي نعم !!

بدا عليه تفكير عميق ثم نطق :

ـ الحمد لله فقد كنت بانتظاره على نار •

هز المأمور رأسه في استجابة • وقال برقة :

ـ عظيم •• اتفقنا يا عم سيده

وانصرف الرجل وما لبث ان عاد ومعه الصور والخطابات • ووضع المأمور الصورتين جنبا لجنب وأمامه الصورة الثالثة (وهي الاب) وحاول بكل ما يملك من خبرة ان يلتقط (الخط) الذي يجمع بين هؤلاء الثلاثة

والذي تضفيه الوراثة على الوجوه ثم •• تبسم في وجه الرجل وأعطاه صوره وخطاباته وقال له :

ـ تفضل يا عم سيد • عد الى مكانك •• شكرا •

فسأل الرجل في لهفة :

ـ والخطاب الجديد ؟

حملق فيه قائلا :

ـ ليس هناك خطاب •• انني فقط اردت ان ارى صور ابنائك •

لم يبد على وجه الرجل شيء من خيبة الامل • كان اليوم قاسيا تماما كصورته المألوفة عنه بين النزلاء • وحك ذقنه • وخرج بظهره من المكان دون ان تحملق عيناه بنظرة متمكنة في اي شيء حوله •

لكن حالة الرجل الصحية بدأت تسوء • وتحولت مشاكساته لكل من حوله الى شكوى مبهمة من مرض باطني • وعرف المأمور بخبر نقله الى المستشفى فضم هذه الفكرة الجديدة الى شيء كان يتوهمه في هـــذا الانسان • وكان يعرف تماما ان الذكريات والهواجس والحوادث تأخذ صورة مكبرة الف مرة في هذا المكان الذي يشرف عليه •• في السجن•• حيث يسود السكون الخارجي والداخلي • ليس بالنسبة الى المكان فقط لكن بالنسبة الى كل انسان يكتب عليه ان ينزل فيه •

فالسجية الانسانية لن تظهر على حقيقتها • وحتى الاحـــلام يحاول اصحابها ان يتحكموا فيها بالزيادة او النقص او المنع تبعا لما تجلبه من راحة للنفس الانسانية المسكينة •

لذلك فقد اعتقد المأمور ان المرض الباطني الذي حل بهذا الرجل ليس الا تعبيرا جديدا عن شيئين •• اثارة الاهتمام •• وتخاذل القوى •• في

وقت واحد .

***

ولم يلبث الرجل ان شفي من مرضه ولكن ليس شفاء تاما .

وأخذ الزمن يدور وليس هناك خطابات ترد . كأنما قنع من هنا بقدره وشغل من هناك بقدره .

لكن حدث ان استدعى المأمور ذلك الرجل . جاء اليه يهرول . أحس ان شيئا غير عادي قد وقع . هو شيء سار على كل حال . هكذا يحدثه قلبه . كان لا يرى الابواب في الممرات ولا يحس انه يهبط درجات سلم .. كان يطير .. ولاول مرة عرف الطيران بغير ريش . وحدثته نفسه في الطريق بما يخفيه . فقد حذرته ان يكون هذا وهما . لكنه عاد فأقنع نفسه .. انه في صفاء روحي في هذه الايام .. احلامه فضية .. وكل من حوله يقولون له : «مالك تغيرت .. اخلاقك ساءت» ويضحكون لانهم يقصدون انها «تحسنت» .

وفوجيء الرجل بأنه رأى المأمور باتنظاره خارج حجرته . واقفا وعلى وجهه شيء يوحي بالطمأنينة . وخيل الى النزيل انه يرى على وجه المأمور صورة والده . خيل اليه انه بعث من قبره .. فقط لو لم يكن يلبس حلة عسكرية .

ـ عندي خبر سار لك يا عم سيد .

وبلع الرجل ريقه :

ـ كل .. اخبارك .. سارة .. يا .. سيدي !

ـ خمن !

هز رأسه عاجزا عن ان يخمن شيئا ، فليس معه شيء يقامر به حتى التخمين •

قال المأمور :

ـ عجزت ؟!

ـ اي نعم •

ـ ابنك وكيل النيابة وابنك طالب الثانوي ••

هتف الرجل في جزع لا يوصف :

ـ ما لهم ؟!

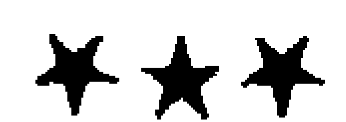
ـ عندي في المكتب •• باتنظارك ليروك !

استند الرجل على اقرب حائط • وأغمض عينيه • لكن المأمور اخذه من يده برفق ودخلا الى حجرة المكتب •

★★★

كان هناك سيدة تخطو الى الاربعين ومعها بنت في الرابعة عشرة •• وقع نظر الرجل عليهما فهم ان يصرخ • وعانقته بنته وقبلته وسلمت عليه زوجته وهي تنشر الدمع في منديل •

وتبادل الرجلان نظرة ليست طويلة لكن النزيل اعترف فيها بعبقرية المأمور وانسانيته •



كانت زوجته قد قررت ألا تزوره لانه ـ ان كان صادقا او كاذبا ـ قد اختلس غير محتاج . وكان اليسر باديا عليها مع شيء عظيم من الكآبة. وكان اهله قد اتخذوا هذا القرار ونسوا ضعف الانسان او كـــوارث القدر (على حد سواء) ولم يكن للرجل اولاد بنون . ومن سدة حنينه الى النهاية الصغرى التي يتمتع بها الانسان والحيوان كان يسرق صور ابناء النزلاء ويكتب عليها الاهداء لنفسه . ويخرجها من السجن لتعود اليه بالبريد مرة ثانية على انها من قلوب تحبه وتعطف عليه .

ولم يكن يظهر هذا لاحد الا للمأمور .. خوف ان يرى احد صورة ابنه المسروقة . فكان اذا شعر انه اشترى حنانا زائفا وهو يعرف حقيقته انطوى وبكى او خاصم وشاكس .

وأخيرا مرض .

وهكذا عرف المأمور (ذلك الرجل الذي يحمل قلب انسان) الطريق الذي تسلكه عادة قلوب الآباء ..

المريلة البيضاء

انه لم ير هذا المكان منذ اكثر من خمسة عشر عاما • وعندما وقعت عليه عينه تواردت عليه الذكريات •• فهذه الحديقة ذات السور وعراجين الموز التي كثيرا ما تدلت على أسلاكه على مقربة من الطريق •• العين العابرة كانت تقول عندما تقع على هذا المنظر : «يا لها من جنة» لكنها في حقيقة امرها لم تكن كذلك • وعندما تواردت عليه الذكريات أحس شيئا انه يعيشها من جديد • تجسدت امامه صورة القصر الذي تظهر من خلال الاشجار بعض شرفاته والذي قضى فيه شطرا كبيرا من حياته •• شطرا لا يقل عن خمسة وثلاثين عاما ••

ها هو ذا يرى نفسه من جديد غلاما في العاشرة من العمر تختلي به امه ذات ليلة في دارهم الصغيرة على حدود هذه القرية لتقول له وفـي عينيها معنى غامض لم يدر هذا الصغير ليلتئذ ماذا يكون • اخبرته امه انه من الغد يتحتم عليه ان ينقطع عن المدرسة ••



ليس هناك خطابات ترد ، كأنما قنع
من هنا بقدره ... وكذلك من هناك

عندئذ خفق قلبه وسأل نفسه مع شهقة صغيرة يكتمها : «ولماذا يتحتم علي ان أنقطع عن المدرسة ؟» وكانت امه كذلك تتنهد • اطرقت نحـــو الحصير الذي يجلسان عليه وسلتت منه عودا اخذت تقضمه بأسنانها وهي تعاود الحديث •

ــ نعم يجب ان تنقطع عن المدرسة يا عطية •• لانك ستلتحق بعمل سينفعك في يوما ما••• ستكون في خدمة الاسطى عبد العال الطباخ منذ باكر لان الصبي الذي كان في خدمته قد انقطعت اخباره •• ويقولون انه غرق وربما يكون قد رحل عن القرية خفية •• المهم ان هذا الصبي قد انقطعت اخباره وقد وقع اختيار نعمات هانم عليك انت لتحل محل هذا الغلام الذي رحل •• وأنت تعلم يا بني انني اعيش في خدمة سكان هذا القصر من قديم ••

***

وهكذا عاودته الذكريات وهو داخل الى القرية بعد غيبة ما يزيد على خمسة عشر عاما • وتذكر اليوم الذي قضاه في المدرسة قبل ان ينقطع عنها • نعم •• كانت الحصة الاولى فيه حصة حساب وكانت المسألة التي يحلونها في الفصل في ذلك اليوم تدور حول نفقات مطبخ احد الاغنياء•• كان كل شيء كأنه فأل لحياته •• وكان رأس المسألة : «اشترى طبـاخ وصبيه سبعين رطلا من اللحم ••» • وضحك عطية يومئذ وأخذ يحـل المسألة ببساطة والى جواره احد ابناء اغنياء القرية يهمس وهو يحـل مرتبكا ويقول : «سبعين رطلا •• من اللحم ••» ولا يستطيع ان ينتقل من مكانه في المسألة • وضحك عطية في سره وهو ينتهي من الحل ويقول

في نفسه : «انهم يأكلونه ولا يفهمون» وأودع كراسته الدرج بعد ان كتب على غلافها من الخلف كلمة بسيطة عبر بها عن شعوره : «مــع السلامة» •

ومنذ ذلك اليوم غاب عن المدرسة • انتقل من الفصل الى المطبخ في القصر حيث كانت امه تعيش هناك كذلك •

***

وهكذا عاودته الذكريات •• كان في هذه اللحظة لا يزال يسير بحذاء سور الحديقة • وكانت ازهار برية مختلفة الالوان منتشرة بين اوراق النبات الشائك الذي سلحت به أسوار الحديقة •• نعم •• وتذكر عطية كيف انتقل من الفصل الى القبو •• فقد كان المطبخ في بدروم عميق فيه عدة حجرات بعضها يفتح بمعرفة اصحاب القصر وبعضها يفتح بمعرفة الخـدم •

ومن بين الحجرات التي كانت لا تفتح الا بمعرفـة اصحاب القصر حجرة كانت تستأثر بكل اهتمامه ولا يستطيع ان يسأل عنها احدا • لان عبد العال الطباخ كان رجلا قاسي القلب ولعل السر في قسوة قلبه انه لم يلق في عمله هناك الا كل قسوة • وليس مرجع هذا الى احساسـه الشخصي بل الى انه كثيرا ما يتناول طعامه مما يطبخه ثم يعود الى بيته فيرى اولاده يأكلون أتفه الطعام • ولذلك كان يشعر بما يشبه تأنيب الضمير الدائم المستمر كأنه نحيب • وعلى مرور الزمن اصبحت القسوة اساس طبعه • لذلك فانه كان يعامل صبيه عطية بكل شراسة فهو ان اخطأ

لسعه بسيخ ساخن او رشه بالماء او لوث ملابسه بالهباب او قص من شعر رأسه خصلة بالمقص • ومرة من المرات اتهمه بسرقة قطعة من اللحم • وكان لهذه الحادثة صدى في نفس الغلام الذي كان يحتمل كل الاذى الجسماني بشجاعة ولكنه لم يحتمل ان يتهم بمثل هذا • وظل طول ليله يبكي وأمه تكفكف دمعه ••

وهكذا عاودته الذكريات •• ولا يزال سور الحديقة الى يمينه عليه ازهار برية ملونة منثورة في النبات الشائك •• وسأل عطية نفسه قائلا : «ماذا كان وجه مستقبله لو انه لم يحبس عن المدرسة ؟!» لا شك انــه شيء غير هذا • فهو اليوم طباخ في احد مستشفيات الحكومة • يرى الاطباء وهم يقطعون الأبهاء الطويلة في مرايلهم البيضاء النظيفة كأوراق السوسن •• وعطية كذلك يلبس مثل احدى هذه المرايل • لكنه يرى الفرق كبيرا ويعتقد بينه وبين نفسه ــ وهو صادق ــ انه لو لم يجبر على الانقطاع عن التعليم ليكون خادما كبقية اسرته في هذا القصر ــ لربما كان اليوم يتخايل في مريلة بيضاء من لون اخر غير الـــذي يلبسه !• وحقيقة كان جديرا بذلك • وقد بكى كل مدرسيه يوم قرأوا على ظهر كراساته كلمة «مع السلامة» كتبها بخط كبير كأنه كان يستثير في قلوب الناس نوازع الدعوة الى المساواة والعمل على اختراع ميزان جديـــد للانسان •

وهكذا عاودته الذكريات •• وقد كان الاوسطى عبد العال الطباخ شرها في اكله • خيل لعطية ايام كان معه في القبو ان الرجل يأكل فوق ما يطيق • فكثيرا ما كان يأكل ثم يحس بآلام المغص •• لعله كان يشعر انه يأكل لنفسه ولاولاده • اما صبي الطباخ فكان يلذ له ان يراقبه وكانت مراقبته اهم عنده من تناول الطعام •• وأصبحت حياته شيئا شديد الرتابة فهو لا يرى الشمس الا منحدرة من على الطريق الى البدروم ولا يرى

الا أقدام بعض المارين ولا يرى الا حجرات مقفلة من بعضها تفـــوح روائح يعرفها ومن بعضها تفوح روائح لا يعرفها وأخصها تلك الحجرة الغامضة التي لم يستطع ان يسأل الاوسطى عبد العال عن سرها •

وها هو ذا لا يزال يمشي الى جوار سور الحديقة •• انه طويـــل طويل مثل ليل الشتاء على الخائف • والذكريات تتوارد على رأسه : انه لم ير هذا المكان منذ اكثر من خمسة عشر عاما • وهو الان يذكر لماذا خرج من القرية •

كان ذلك في ليلة مضيئة • ليست مضيئة في القرية لان هذه القرية لم تكن ايامها تعرف النور • بل كانت مضيئة في القصر ، اذ كانت ربته تحتفل بأحد اعياد ميلادها • وتوافد على المكان الهادىء ناس كثيرون من المدينة اقارب وأصهار وأطفال وشباب • وأخذت الحقول الهادئة تشعر برجفة مثل رجفة القيامة حين تناثرت في ظلام تلك الليلة اضواء وضحكات وموسيقى وعطور • وربما همسات بحكايات عن الناس !

وكان عطية يومئذ طباخا شابا • وكان عمه عبد العال ومعلمه مريضا منذ اسابيع • يرقد في مستشفى • ويرى الاطباء بمرايلهم البيضاء وهم يقطعون أبهاء المستشفى •

وقام بالعمل مكانه الطباخ الصغير •• عطية •• وكان شديد البهجة بما عمل • فهذه وليمة ضخمة تحمل أعباءها • كربان قاد السفينة وحده للمرة الاولى •

لكنه في اخر تلك الليلة فوجيء بربة القصر تدعوه اليها وأخذ يخمن وهو يصعد السلم من القبو اليها • كان قلبه يقول له اشياء كثيرة الا الذي حدث • فقد اخبرته انها وجدت شيئا تحت ضرسها وهي تأكل صنفا من اصناف الحلوى • وقد كتمت الامر حتى لا يشعر الضيوف • ولمـــا

قدمت اليه هذا الشيء لم يحر جوابا فقد كان خاتما من المعدن الابيض اعتاد عطية ان يحلي به يده اليمنى • ولم يدر كيف سقط منه • انه كان واسعا عليه نوعا ما ولعل جسمه كان قد نقص وزنه •• لكنه على كل حال قد سقط من يده في وعاء الحلوى وهو على النار ••

ولم يحر عطية جوابا •• وقذفته به السيدة في وجهه وطردته فخرج من القصر في ليلة مضيئة • ووجد الظلام يرقد على كل الكائنات في القرية لا فرق بين الافران والحظائر وحجرات النوم • وسار ليلتئذ الى جانب هذا السور الذي يراه الان هذا السور نفسه •• الطويل •• الممتد •• المسلح بأشجار ذات اشواك فيها ازهار منثورة من كل لون •• ثم رحل الى القاهرة حيث اشتغل طباخا في احد المستشفيات وعاش يتشهى ان ينظر الى مريلة الطبيب ويذكر تلك الكلمة التي كتبها على كراساته يوم ودع المدرسة «مع السلامة» والتي قرأها مدرسوه وشعروا يومها ان هذا التلميذ يطالب الناس بأن يخترعوا للانسان ميزانا جديدا•

وهكذا عاودته الذكريات •• وبات تلك الليلة في القرية • وفي الصباح خرج ليرى موطنه الجديد • الناس غير الناس • يتكلمون بطلاقة • لا احد يخاف • ذلك لان الكابوس الذي كان يسكن وراء الحديقة في ذلك القصر الذي حرمه من المدرسة وخطفه ليعمل «مرمطون» ثم طباخا •• ذلك الكابوس قد رحل •• مضى •• وولت ايامه •

وذهب الى الحديقة ودخل من بابها •• كان هناك ايضا اطباء يرفلون في المرايل البيضاء ويدخلون مسرعين ويخرجون مسرعين • وهناك مرضى يعالجون وأصحاء يخرجون •

ولذ له ان يدخل الى حيث مكان ذكرياته الاولى حيث كان الاوسطى عبد العال وهو وحيث بدأت قصة حياته ثم انتهت • حيث خدم ثم سقط

خاتمه وطرد في ليلة شاتية •

وهبط سلم البدروم •• ودخل ووقف في سبيله رجل • لكنه ما لبث ان عرفه •• فقد كان من زملائه قديما • انه يعمل امينا لمخزن هذا القصر الذي حول الى مستشفى • ودخل هو وزميله •• كانت روائح الادوية تفوح في المكان • اما الحجرة التي كان لا يعرف سر ما فيها وهو صغير ثم عرفه وهو كبير فقد كانت مفتوحة •• وكانت مملوءة بالدقيق والسكر • ووقف عطية يتلفت كأنه يبحث عن صورة امه على احد الجدران لكنه ما لبث ان أفاق على يد تربت على كتفه • ولما التفت الى صاحبها وجده عم عبد العال الطباخ وقد ملأ الشيب رأسه • لكن على وجهه بشاشة لم يكن يراها من قبل • وعانقه كما يعانق الاب ابنه والابن أباه • ولما انتهى عناقهما سأل عطية وهو يبتسم عمه الطباخ القديم قائلا:

ــ وأنت هنا ايضا ؟••

فأجاب :

ــ نعم انا طباخ في المستشفى •

فقال عطية :

ــ ولماذا كنت قاسيا علي ايام زمان يا عم عبد العال ؟

فأجاب الرجل

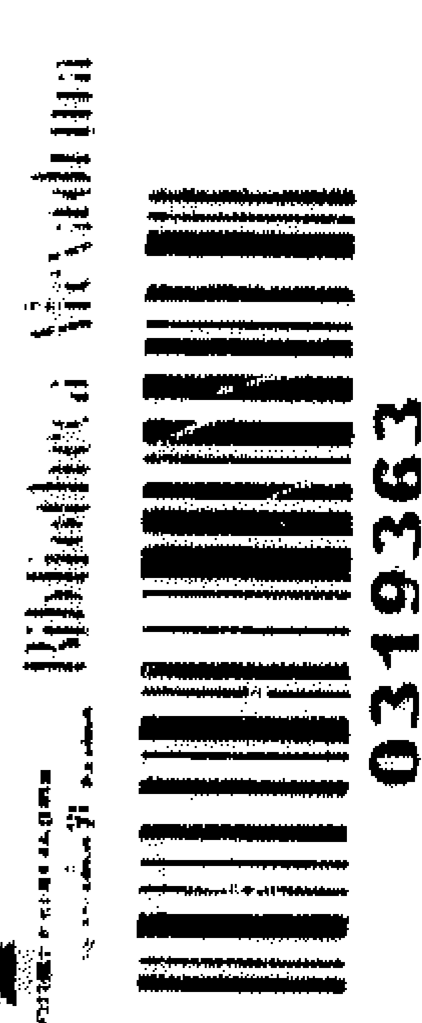
ــ لان الزمان كان قاسيا على الناس كلهم يا عطية •• عانقني مرة اخرى •

ــ تمت ــ

هـذا الكتاب

- أنت لست مريضًا بالقلب ، لكنك محتاج الى الحب .
- هناك اشياء يجب ان يعملها الناس لنفسهم بنفسهم ... حبًّا في الناس .
- ان المال .. مثل الاظافر .. كلما قصت عادت فطالت .
- لماذا كنت قاسيًا على ايام زمان ؟ ...

  لان الزمان كان قاسيًا على الناس كلهم ! ...
- ليست هناك خطابات ترد . كأنما قنع من هنا بقدره وشغل من هناك بقدره .
- ان الببغاء لم يكن ناطقًا ولامغردًا ولكنه نطق عندما لمسه الحب .



الثمن ٧٠٠ ق.ل.